لغز الجزيرة المهجورة



محمود سالم

لغز الجزيرة المهجورة

تأليف
محمود سالم



لغز الجزيرة المهجورة

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩ ٢٣٥٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

حكاية عن التهريب

بدأتْ رائحة البحر تظهر في الجو، والسيارة الحمراء الكبيرة تشقُّ طريقها إلى الإسكندرية، و«المغامرون الخمسة» يَجتمعون لأوَّل مرة في رحلة واحدة إلى المدينة الجميلة على شاطئ البحر المُتوسِّط.

كانوا قد تحدَّثوا طويلًا خلال الرحلة، فساد الصمت داخل العربة، ولم يَعُد مسموعًا إلا صوت موتور السيارة، وهو يُدوِّي على الطريق الزراعي، يقودها خال «عاطف» و«لوزة» الذي دعا الأصدقاء جميعًا إلى قضاء أسبوعَين في الفيلا التي يملكها في «أبو قير» الضاحية البعيدة للإسكندرية، حيث يسكن مع أسرته، وحيث يملك مجموعة من سفن صيد السمك في البحر.

قالت «لوزة» وهي تنظر إلى اللافتة الصفراء التي تحمل أرقام المسافة: لقد بقيَ عشرون كيلومترًا فقط على الإسكندرية، فكم تَستغرقُ من الوقت يا خالي؟

رد الأستاذ «شوكت»: نحن نسير الآن بسرعة ثمانين كيلومترًا في الساعة، احسبيها أنت وستَعرفين الوقت الباقي.

سكتَت «لوزة» فقال «عاطف»: هذه عملية بسيطة يا «لوزة»، اقسمي ثمانين على عشرين تَصِلي إلى النتيجة.

ردَّت «لوزة» بسرعة: لم أَكُن في حاجةٍ إلى مساعدتك لأعرف؛ فقد بقي ربع ساعة فقط، ونصل إلى الإسكندرية.

نوسة: ولكن أليست هذه سرعة كبيرة يا أستاذ «شوكت»؟

شوكت: إنها سرعة مُناسِبة ما دام الطريق ليس مزدحمًا.

كان «تختخ» أثناء هذا الحديث مستغرقًا في قراءة كتابٍ صغيرٍ عن مدينة الإسكندرية، وقد وصَل إلى قسمٍ خاصٍّ عن ضاحية «أبو قير» فقال: هل يعرف أحدكم أهمَّ الحوادث التاريخية التي وقعت في «أبو قير»؟

التفت إليه الأصدقاء جميعًا، ثم قال «محب» بسرعة: نعم معركة «أبو قير» البحرية بين الأسطول الإنجليزي والأسطول الفرنسي.

تختخ: عظيم، ومتى كانت المَوقِعة؟

لم يُجب أحد من الأصدقاء، فقال «تختخ»: لقد وقعَتْ في مثل هذا الشهر.

لوزة: في شهر أغسطس؟

تختخ: نعم في أغسطس عام ١٧٩٨.

عاطف: وانتهت بتدمير الأسطول الفرنسي، وضياع آمال «نابليون» في إقامة إمبراطورية شرقية.

نوسة: وهل هناك آثار لهذه المعركة الآن؟

تختخ: هناك آثار، ولكن تحت البحر؛ ففي خليج «أبو قير» ترقد بقايا السفن الفرنسية.

محب: وهناك جزيرة تُسمَّى باسم قائد الأسطول الإنجليزي «نلسن».

تختخ: فعلًا، وفي نيَّتي أن أزورها.

لوزة: وهل تبعد كثيرًا عن «أبو قير»؟

تختخ: نحو خمسة كيلومترات فقط.

وعاد «تختخ» إلى كتابه، وعاد الأصدقاء إلى الصمت، ينظرون خلال نوافذ السيارة إلى الطريق، وإلى المَزارع، وقد بدأت الإسكندرية تتَّضح والسيارة تشق طريقها مسرعة إليها.

بعد دقائق أخرى دخلت السيارة «الإسكندرية» وشقت طريقها في شارع «الحرية» متجهة إلى «أبو قير»، وظلت تسير مدة طويلة، حتى قالت «لوزة» متضايقة: لم أكن أتصوَّر أن «أبو قير» بعيدة من الإسكندرية إلى هذا الحد.

رد الأستاذ «شوكت»: إنكِ لم تَزُوريها من مدة طويلة، ولعلكِ نسيتِ المسافة؛ فقد كنتِ صغيرة جدًّا عندما حضرتِ آخر مرة. إن المسافة تقطعها السيارة في نحو نصف ساعة، والقطار البطيء في نحو ساعة.

وأخيرًا دخلت السيارة «أبو قير» وعند محطة السكة الحديد، انحرفَت يسارًا، ودخلت إلى «التقسيم الجديد»، وهو الجزء الذي بُني حديثًا في القرية الصغيرة التي تَعتبر آخر امتداد لـ «الإسكندرية» شرقًا، ثم دخلت السيارة أمام فيلا الأستاذ «شوكت».

رحَّبت «داليا»، و«ياسر» ابنا الأستاذ «شوكت» وزوجته بالضيوف، وارتفعت التحيات من هنا وهناك، في حين صعد «تختخ» إلى سطح الفيلا يَرقُب البحر بشوق، ويملأ رئتَيه من النسيم، ووقف بجانبه «ياسر» ينظر إليه بإعجاب؛ فقد كان يعرف الكثير عن مغامرات «تختخ» والألغاز التي يحلُّها، ثم قال بعد لحظات: إنني أريد أن أسمع منك بعض الألغاز التي اشتركت فيها، وتعلمني طريقة حلِّها فأنا من هواة المغامَرات.

رد «تختخ» مبتسمًا: ليس الآن على كل حال، وسوف يأتي الوقت المناسب للقصص والحكايات.

ياسر: كم أتمنَّى أن أشترك في مغامرة معك.

تختخ: من يدري، قد نشترك معًا في مغامرةٍ هنا.

ياسر: للأسف ليس هنا مغامرات؛ ففي هذه المناطق لا يوجد إلا المهربون، وهؤلاء يتولى رجال خفر السواحل مُطاردتهم.

تختخ: لقد قرأت في الصحف مؤخَّرًا عن غرقِ مُهرِّب كبير يدعى «الحنش» هنا في «أبو قير».

ياسر: فعلًا، إن كلمة «الحنش» تطلق هنا على ثعابين الماء، وقد كان الرجل يُشبه «الحنش» فعلًا؛ فقد كان رفيعًا وخبيثًا، سريع الحركة، قادرًا على الاختفاء بحيث لا يعثر عليه أحد، تمامًا كما يختفي الثعبان في جُحره، و«الحنش» في الطين، وحتى عندما استطاع رجال السواحل معرفة مكانه فضَّل أن يغرق بدلًا من أن يُقبَض عليه؛ فعقوبة التهريب الآن تصل إلى ٢٥ عامًا سجنًا؛ أي تُعتبر نهايةً لحياة المهرب.

تختخ: وهل عثرُوا على جثته؟ لقد قرأت أنه ألقى بنفسه في الماء، ولم يستطع العودة إلى الشاطئ، فاعتبره رجال السواحل غريقًا.

ياسر: لم يُعثر على جثته بعد، ولكن رجال السواحل مُتأكِّدون من غرقه؛ فقد أحاطوا بالساحل ٢٤ ساعة كاملة دون أن يظهر.

قضى «تختخ» بعض الوقت يتحدَّث مع «ياسر»، ثم نزلا إلى حيث انضمَّا إلى بقية الأصدقاء، وطافوا بأنحاء الفيلا الكبيرة يتفرَّجُون عليها. وكان ضمن الفيلا مخزن لأدوات الصيد، شاهد فيه الأصدقاء أنواع الشباك التي يُصطاد بها السمك، والسنانير، وغيرها من أدوات الصيد، وقال «عاطف» في ابتهاج: لعلنا نستطيع أن نَخرُج في رحلات لصيد السمك.

رد «ياسر»: طبعًا، وعندنا قارب صغير خاص بالصيد، ويُمكِن استئذان أبي في استعماله.

وعندما أتى المساء، خرج الأولاد السبعة معًا، المغامرون الخمسة ومعهم «ياسر» و«داليا»، واتجهوا إلى شاطئ البحر، وأخذ «ياسر» يشرح لهم جغرافية «أبو قير»، فقال: أبو قير شبه جزيرة يُحيط بها الماء من ثلاث جهات، والشاطئ الشمالي يُشبه القوس المقلوب، يَنتهي طرفه الغربي بالمعسكر الحربي الذي ترونه هناك فوق الجبل، وهذه المنطقة تُسمى التقسيم الجديد، وينتهي طرف القوس الشرقي بقلعة «أبو قير»، وسوف نزورُها يومًا ما، أما الشاطئ الجنوبي لـ «أبو قير» فهو «البحر الميت»، وقد سُمِّي كذلك؛ لأنه يمر هادئًا بلا أمواج، فهو بمثابة خليج يُستعمَل كميناء لقوارب صيد السمك، وصيد السردين.

عندما غربت الشمس، واختفى قرصها الأحمر الوهاج وراء الأفق، ظهرت بعض أنواع «الكابوريا» التي تعيش على الشاطئ، وهو نوع لا يُؤكَل؛ لأنه قليل اللحم، ويعيش في ثقوب في الرمال، لهذا فهو شاحب اللون صغير الحجم، وقضى الأصدقاء وقتًا لطيفًا في مطاردته، وهو يجري هنا وهناك بسرعة خارقة، ثم يَختفي في ثقوبه، وقد استطاع الأصدقاء اصطياد ثلاثة منه بواسطة بعض العصيِّ الخشبية؛ فقد حذَّرهم «ياسر» من مخالبه القوية التي يستطيع أن يقرص بها قرصًا موجعًا.

وعندما هبط الظلام عادوا جميعًا إلى الفيلا، وتناولوا عشاءً شهيًّا، ثم جلسوا يتحدثون ويتفرجون على «التليفزيون».

الجزيرة المهجورة

استيقظ الأصدقاء في الصباح الباكر، وامتلأت الفيلا بأصواتهم وهم يتحدثون في مرح، فقد اتفقوا على قضاء هذا اليوم في اللعب على الشاطئ، وبعد الإفطار لبسوا جميعًا ملابس البحر، وحملوا معهم قاربًا من المطاط وشمسية، وبعض المقاعد، وأسرعوا إلى الشاطئ الذي كان على بعد أمتار قليلة من الفيلا.

اختار «تختخ» أن يبدأ يومه بلعب «الراكت» مع «ياسر» الذي كان بارعًا في استخدام المضرب، فاستطاع أن يهزم «تختخ» بضعة أشواط، فقال «تختخ»: إنك بارع حقًّا يا «ياسر»، وأنا أجيد لعب «الراكت» أيضًا، ولكني لم أمارسه من فترةٍ طويلة، وأعدك بأن أهزمك بعد يومين.

ياسر: إن جميع الألعاب تَعتمِد على المران، ولحُسنِ الحظ، فإنني أتمرَّن مع «داليا» يوميًّا.

وكانت «داليا» و«لوزة» في هذه الأثناء تقيمان سدًّا من الرمال على الشاطئ خلف بقعة صغيرة من الماء، وضعتا فيها سمكة حية في حجم الإصبع، كان «محب» الماهر في السباحة قد استطاع الإمساك بها بين صخور الشاطئ، وأحضَرَهما لهما، ففرحتا بها كثيرًا، بينما ألقى «عاطف» بنفسه في الماء، وأخذ يُجرِّب سرعته في العوم بين الشاطئ والصخور التي تَبعُد عنه بنحو خمسين مترًا.

كان المُصيِّفون يَزحمون الشاطئ، وباعة المثلجات والفاكهة ينادون على بضاعتهم والأصدقاء مُنهمِكون في لعبهم، وكل شيءٍ يبدو بهيجًا في ذلك الصباح الصيفي في الضاحية الصغيرة، وعندما تعب «تختخ» من كثرة اللعب، وأدرك أنه لن يستطيع أن يَهزم «ياسر» في أي شوطٍ في هذا اليوم، ترك المضرب، وجلس تحت الشمسية يتأمل الحياة الصاخبة

أمامه، حيث يتجرد الناس من ملابسهم كلها إلا قطعة صغيرة، ويعودون إلى حياة ما قبل الحضارة والمدنية، وبين فترةٍ وأخرى كانت «لوزة» تأتي لتجلس معه قليلًا، وتنضمُّ «داليا» إليهما، ويلعبون «السيجة»، وهي لعبة تشبه «الشطرنج»، ولكن لا تَحتاج إلا إلى ٦ قطع من الزلط وثقوب صغيرة في الرمال.

وعندما أشرفت الساعة على الثانية انتهى اللعب، وعاد سرب الأصدقاء بجميع حاجاته إلى المنزل، حيث كان في انتظارهم غذاء شهي من سمك البوري المشوي، استمتع الأصدقاء بمذاقه كثيرًا، وقال «تختخ» موجهًا حديثه إلى الأستاذ «شوكت»: إنني آكُلُ البوري المشوي في منزلنا كثيرًا، ولكني لا أجد له نفس الطعم اللذيذ هنا.

ردَّ الأستاذ «شوكت» مبتسمًا: إن السمك يصل إليكم في القاهرة مثلجًا، والمشوي بالذات يحتاج إلى سمك طازج لم يُوضَع في الثلج، وهذا هو الفارق بين السمك هنا والسمك عندكم، وسوف تأتي معي إلى «الحلقة» غدًا لمشاهدة أنواع السمك الذي تصطاده المراكب.

ياسر: ولكننا سنذهب غدًا في رحلةٍ بالقارب يا أبي إلى جزيرة «نلسن»؛ لأن الأصدقاء يريدون مشاهدتها.

شوكت: سنذهب أولًا إلى الحلقة في الصباح الباكر، ثم تذهبون بعد ذلك في رحلتكم.

لوزة: ما معنى «الحلقة» يا خالي؟

شوكت: إنها المكان الذي يتجمَّع فيه السمك ليشتريَه التجار، ولعلَّ الاسم يأتي من وقوف الناس في حلقات أو دوائر للشراء.

وانتهى الطعام الشَّهي، وانصرف الأصدقاء إلى الحديث. وفي الصباح المبكر لليوم التالي، ركب الأصدقاء مع الأستاذ «شوكت» السيارة إلى «الحلقة» التي تقع على شاطئ «البحر الميت»، وعندما وصلوا إلى هناك، كان عدد كبير من الناس يقفون في دوائر حول كمياتٍ من السمك يشترونها، فاتجهوا إلى «حلقة» الأستاذ «شوكت»، وكانت مراكبُه قد صادت كمية كبيرة من السمك ليلًا، وأتت بها في الفجر، وكانت موضوعة على ألواحٍ من الخشب كل نوع على حدة. وأخذ الأستاذ «شوكت» يُبين لهم كل نوع من السمك وسعره، وطريقة صيده، وكانت الأنواع كثيرة منها «البوري»، و«المياس»، و«البلطي»، و«المكرونة»، و«القراميط»، و«الجمبري»، و«اللوت»، و«الدنيس»، و«ثعبان البحر». وعندما شاهد «تختخ» الثعابين السمراء تذكر المهرب الكبير «الحنش».

وانتهت جولة الأصدقاء في السوق، ثم اتجهوا جميعًا إلى القارب ليبدءوا رحلتهم إلى جزيرة «نلسن»؛ فقال الأستاذ «شوكت»: خذوا حذركم، فالريح قد تهبُّ فجأة برغم أننا

في فصل الصيف، وعليكم في هذه الحالة أن تعودوا فورًا إلى الشاطئ؛ فالقارب صغير، ولا يحتمل الأمواج العالية.

ثم أشار الأستاذ «شوكت» إلى الكاميرا التي كان يحملها «ياسر»، وقال: أرجو ألا يصيبها ماء البحر؛ فهي كاميرا ثمينة، وماء البحر يفسد أجهزتها.

قفز الأصدقاء جميعًا إلى القارب وهم في غاية السعادة، فقد كان قاربًا جميلًا، مدهونًا باللون الأصفر، ومكتوبًا عليه اسم «ياسر»، ويضمُّ مجموعة من الوسائد اللينة على جانبيه، ومظلَّة خشبية لحمايتِهم من الشمس، استقر الجميع في أماكنهم، وجلس «ياسر» إلى عجلة القيادة، وضغط على مفتاح الموتور فدار على الفور.

كان «محب» يعدُّ أدوات الصيد، في حين أخرجت «داليا» من حقيبة الطعام «تُرمس» به شاي ساخن، وقدمت لكل واحد كوبًا من الشاي قائلة: «هناك تُرمس آخر به عصير البرتقال المثلج، ولكني أبقيه حتى تشتدَّ الحرارة. وعلى صوت موسيقى خفيفة من جهاز راديو صغير، بدأت الرحلة، و«ياسر» يقود القارب ببراعة ناحية الجزيرة التي بدَت من بعيد كأنها جبل من الصخر يعود على وجه البحر.

مضى نصف ساعة، والأصدقاء يُغنُّون ويتحدَّثون، القارب يَمضي على وجه البحر الهادئ في يُسر، حتى أشرفوا على الجزيرة فقال «ياسر»: بقيت دقائق فاستعدُّوا، ثم أوقف المحرك، وترك القارب يقطع الأمتار الباقية بقوة الدفع، حتى وصلوا إلى شاطئ الجزيرة الصخري، فأدار عجلة القيادة ببراعة، فرسا القارب بهدوء على الشاطئ دون أيِّ صدمة.

نزل الأصدقاء إلى الجزيرة، في حين ربط «ياسر» القارب في إحدى الصخور ولحق بهم، وكانوا يَجرُون في كل اتجاه، وقد ملأتهم السعادة بوجودهم فوق جزيرة ليس بها أحد سواهم، مهجورة إلا من طيور «النورس» البيضاء، التي كانت تُزقزق في الجو صاعدة، ثم تنقضُّ كالصاروخ على الأسماك، فتحملها في مناقيرها، وتعود بها إلى الصخور لتأكلَها.

كانت الصخور على شاطئ الجزيرة مدببة لا تسمح لأحدٍ بالاقتراب من الشاطئ إلا بحذرٍ شديد، فقال «تختخ»: حذار أن ينزل أحد إلى الشاطئ إلا مع المجموعة؛ لكي نُنقذه إذا وقع.

وبينما انصرفت الفتيات الثلاث «نوسة» و«لوزة» و«داليا» إلى البحث عن أعشاش الطيور لتُشاهِد الطيور الصغيرة التي تسكن الجزيرة، أخذ الأولاد «تختخ» و«محب» و«عاطف» و«ياسر» يُعدُّون أدوات الصيد التي كانت مُؤلَّفة من السنانير والخطاطيف، ثم وضعوا الطعم بها، وانصرف كلٌّ منهم إلى مكانٍ بعيدٍ عن الآخر، ثم أخذوا يقتربون من الشاطئ — بقدر الإمكان — لإلقاء السنانير في الماء.

لم يَشتَرِك «تختخ» في الصيد أولًا، بل اختار أن يطوف بأنحاء الجزيرة كلها، حتى يتعرف عليها، ثم يعود بعد ذلك للصيد.

كانت الجزيرة مُستطيلة ... عرضُها نحو مائة متر، وطولها نحو أربعمائة متر، وتعلو عن سطح البحر بنحو عشرة أمتار، وتُحيط بها الصخور المدبَّبة من كل جانب.

وبينما كان «تختخ» يسير في وسط الجزيرة تقريبًا شاهد بقعة من الماء القليل في حجم الطبق. ودهش «تختخ» لوجودها في وسط الجزيرة الصخري، فمن أين أتى الماء إليها؟ ذاق «تختخ» الماء فوجده مالحًا، فأدرك أنه من البحر، فكيف وصَل ماء البحر على هذا الارتفاع؟ ثم كيف وصل إلى وسط الجزيرة؟ شيء مُحيِّر فعلًا وجد فيه «تختخ» نوعًا من التحدِّي لذكائه، فقرر أن يعرف كيف وصل الماء إلى هذا المكان.

في هذه اللحظة سمع «تختخ» صيحة فرح من ناحية «محب»، وسمعَ صديقه يصيح في سعادة: سمكة ... سمكة اصطدتُ سمكة. وأسرع الجميع إليه، وفعلًا كانت السمكة الفضية تَلمع وتتلوَّى في نهاية السنارة التي رفعها إلى فوق ليُشاهدَها الجميع. كانت سمكة من نوع «القاروص» متوسِّطة الحجم، فأحاط الأصدقاء بـ «محب» يُهنئونه على براعته، وقال «ياسر»: انتظر حتى ألتقط لك صورة وأنت تَحملها، ثم أسرع لإحضار الكاميرا من القارب، وبعد أن التقط «ياسر» للأصدقاء بعض الصور التذكارية، انصرف كل منهم إلى ما كان يعمل. وعاد «تختخ» إلى بقعة الماء الصغيرة، وأخذ يفحصها بأصابعه فأحس أن هناك شرخًا رفيعًا جدًّا في الصخر، فأخذ ذهنه يعمل بسرعة، هل يصل هذا الشرخ إلى قاع الجزيرة ويتصل بالبحر؟

إن هذا هو الحل الوحيد، فليس من الممكن، مهما ارتفعت الأمواج، أن تصل إلى وسط الجزيرة، وتُكوِّن هذه البقعة، لكن كان هناك سؤال آخر: إذا كان الشرخ يصل إلى قاع الجزيرة، فكيف يصعد الماء إلى فوق؟ إنه يَحتاج إلى قدرٍ كبيرٍ من الضغط للارتفاع إلى كل هذه المسافة، والحل أن الشرخ رفيعٌ في أعلاه. ويتسع تدريجيًّا إلى القاع، ويصعد الماء إذا اشتدَّت الأمواج، وقذفت بالماء خلال الشرخ الضيق إلى سطح الجزيرة، ومعنى هذا أن هناك مجرًى من الماء يشقُّ قلب الجزيرة من أسفل، ويصلُ إلى مُنتصفُها حيث يندفع الماء إلى الشرخ الرفيع، ولسلامة الاستنتاج وتأكيده، قرَّر «تختخ» أن يطوف بالشاطئ الصخري، ليجدَ الممرَّ الذي يندفع فيه الماء.

نزل «تختخ» بهدوءٍ على جانب الجزيرة الصخري، وأخذ يتحسس مواقع قدميه، وهو ينزل خطوة خطوة، حتى اقترب من الماء، وأخذ الرذاذ المتطاير من الأمواج الصغيرة يصل

إلى وجهِه، فأحسَّ بانتعاش، خاصةً وأن الشمس كانت قد ارتفعت في السماء، وبدأ ضوءُها القوي يصل إلى الجزيرة.

وقف «تختخ» ينظر حوله، وأدرك أنه لن يستطيع طواف الجزيرة حول شاطئها؛ لوجود الصخور المدبَّبة، وصعوبة الانتقال فوقها، فقرر أن يعود مرةً أخرى إلى فوق، خاصةً وقد سمع صيحات الابتهاج من الأصدقاء ترتفع، وأدرك أنهم اصطادوا أسماكًا أخرى.

عندما صعد «تختخ» إلى سطح الجزيرة سمع «ياسر» يقول: لقد اصطدنا جميعًا كل واحد سمكة، عدا «تختخ» الذي لم يُجرِّب حظه.

فرد «تختخ» من بعيد: سأُجرِّب حظِّي فورًا، ثم أمسك بإحدى السنارات، وألقاها في الماء وهو يقول: أرجو أن يكون عند السمَك ذوق فلا يَكسفني معكم، ثم أخذ ينظر إلى الماء مُتأملًا وهو يقول في نفسه: إنَّ الصيد هواية تحتاج إلى صبرٍ طويل، وسأَصبر حتى أَقتنِص سمكة أنا الآخَر، ولكن مضَت أكثر من ساعة، والسنارة في يده لا تهتز، والأصدقاء بين لحظةٍ وأخرى ينظرون إليه ويضحكون وهو مُندهِش من ضحكهم، وأخيرًا قالت له «لوزة»، وقد احمرَّ وجهُها: لا فائدة يا «تختخ»، فلن تصطاد سمكة واحدة.

قال «تختخ» مُندهشًا: لماذا؟ هل بين السمك وبيني عداء؟ ردَّت «لوزة» في أسف: أبدًا ولكن حضرتك نسيت أن تضع طعمًا في السنارة! وانفجر الجميع ضاحكين، في حين سحب «تختخ» السنارة، وهو يَلعن غفلته ويلوم الأصدقاء؛ لأنهم لم يَلفتُوا نظره إلى هذا الخطأ.

وجاء وقت الغداء فقال «ياسر»: سأشوي لكم الأسماك التي اصطدناها فاجمعوا بعض الأعشاب، «الأخشاب الجافة». وسرعان ما انتشر الأصدقاء في أنحاء الجزيرة، ثم عادُوا بالمطلوب فأشعل فيه «ياسر» النار، وعندما اشتدَّت ألقى فيها بالسمك، ووقف الجميع حول النار يتضاحكون، ثم حملوا الأسماك المشوية إلى حيث نصبت الفتيات الخيمة، وأعدوها للغداء الذي أعدته لهم والدة «ياسر»، وجلسوا في ظل الخيمة يتناولون الغداء في مرح.

قضى الأصدقاء وقتًا طيبًا، وبعد الغداء بنحو ساعة قرروا العودة، فاستقلُّوا القارب مرةً أخرى، واتجهوا إلى الشاطئ.

وصل القارب إلى الشاطئ، وبدأ الأصدقاء يَجمعون حاجاتهم؛ لإعادتها إلى المنزل، وبعد أن أخرجوا كل شيءٍ من القارب صاحت «داليا» بضيق: أين «الكاميرا»؟ إنني لا أراها هنا.

أسرع «تختخ» و«ياسر» إلى القارب لإحضار «الكاميرا»، ولكنَّهما لم يَجداها فيه، فقال «ياسر» بضيق: يبدو أننا نسيناها في الجزيرة، فماذا سنفعل؟

تختخ: نعود لإحضارها. فما زال أمامنا وقت، فلنذهب أنا وأنت و«محب» فقط، ويعود «عاطف» مع الفتيات إلى البيت.

وركب «عاطف» والفتيات الثلاث «كارتة»، وهي عربة صغيرة يجرُّها حصان، وعادُوا إلى البيت، في حين قفز «تختخ» و«ياسر» و«محب» إلى القارب، واتجهوا مرةً أخرى إلى الجزيرة.

مغامرة في الظلام

كانت الريح قد بدأت تهب تدريجيًّا ... والأمواج تَرتفِع شيئًا فشيئًا، ولكن القارب مضى في طريقه يشقُّ الماء، وقد أطلق له «ياسر» العنان، وفجأة دار القارب حول نفسه كأنما هناك يد قوية تُمسكه وتديره، فكاد «محب» يسقط في الماء لولا أن تمالك نفسه، وصاح «ياسر»: لقد انكسرت «الدفة». أدرك «تختخ» أن القارب لن يمكن السيطرة عليه بعد كسر الدفة التي عن طريقها يتم توجيه القارب، وأحسَّ أنهم مُقبلون على متاعب من نوعٍ جديد، فصاح في «ياسر»: أوقف «الموتور»، وكان «ياسر» قد فكر في نفس الخطوة، فأوقف «الموتور»، ووقف القارب في وسط المياه كأنه قطعة من الخشب لا حول لها ولا قوة.

قال «تختخ»: ما هو الحل الآن يا «ياسر»؟ إنك أكثر منَّا خبرة بمآزق البحر ومشاكله، فماذا ترى؟

ياسر: نستطيع استعمال أحد «المجاديف» كبديل لـ «الدفة»، ولكنا في هذه الحالة لا بد أن نسير ببطء، حتى نتمكَّن من السيطرة على القارب.

تختخ: لا بأس، ولكن هل سنعود أم نذهب إلى الجزيرة؟

ياسر: لم يبقَ على الوصول إلى الجزيرة إلا نحو عشر دقائق أو أقل، ومن الأفضل أن نذهب لإحضار «الكاميرا»؛ فهي «كاميرا» ثمينة تُساوي أكثر من مائة جنيه.

تختخ: أوافق، وهيا بنا.

قام «ياسر» بتثبيت مجداف مكان الدفَّة المكسورة، وطلب من «تختخ» أن يمسك به جيدًا حتى لا يفلت، في حين قام هو بقيادة القارب من المقدمة، وبدأ «الموتور» يدور مرةً أخرى، وسار القارب في اتجاه الجزيرة، ولكن ببطءٍ شديد، وكانت الريح في تلك الأثناء قد انطلقت تزمجر على سطح البحر، وترفع الأمواج التي أصبحت تلعب بالقارب كأنما هو قطعة صغيرة من الفلين على سطح البحر الهائج.

أدرك «ياسر» أن مهمتهم صعبة، وأن الوصول إلى الجزيرة شبه مستحيل، خاصةً وقد بدأت الشمس تغرب، والظلام يسدل ستاره على البحر وعلى كل شيء، أخذ «ياسر» يفكر فيما يفعل، وهل يُصارح «تختخ» و«محب» بموقفهم الخطير أم يتصرَّف من تلقاء نفسه؟ وقرَّر في النهاية أن يستشير «تختخ» باعتباره زعيم المجموعة، فصاح: «تختخ».

ولكن «تختخ» لم يسمعه؛ فقد كانت الريح تحمل صوته بعيدًا، فكرر النداء مرةً أخرى، فرد «تختخ»: ماذا تريد؟

ياسر: أظن أننا لن نستطيع الوصول إلى الجزيرة؛ فالأمواج تقذفنا بعيدًا، وأخشى ألا نستطيع الوصول إلى أيِّ أرضٍ خاصةً وأن الدنيا بدأت تُظلم، ولن نرى طريقنا في الليل.

تختخ: وماذا تقترح؟

ياسر: أقترح أن نُحاول العودة إلى الشاطئ بأسرع ما نستطيع.

تختخ: أوافق.

وبدأ «تختخ» يدير الدفة التي صنعوها من المجداف، ولكنها لم تكن قوية، حتى تدير القارب دورة كاملة، فأخذ «تختخ» يُديرها بهدوء وحذَر، مُحاولًا أن يعدل اتجاه القارب إلى «أبو قير». وكانت الأمواج تَرتفِع، ثم تضرب القارب في جانبه، وتنهال المياه داخله، فتُغرق الأصدقاء الثلاثة، ثم تنحسر ناحية البحر مرةً أخرى، وما تكاد تمضي موجة حتى تأتي موجة، حتى أحس «محب» الذي كان يجلس في وسط القارب أنه يشبه الإسفنجة لكثرة ما امتصتْه ثيابه من الماء.

كان الظلام قد هبط تمامًا والقارب ما زال في منتصف المسافة بين الجزيرة وبين «أبو قير»، وأخذ «تختخ» يفكر في مغامرات المعادي. لقد كانت كلها على الأرض، وليس فيها هذا البحر الغاضب، ولا السماء المكفهرة ولا الرياح المدوية. وفي الوقت نفسه كان «محب» قد بدأ يرتعد تحت تأثير المياه التي ملأت ثيابه، وتخلَّلت جسده كله، حتى أحس بالبرد برغم أنهم في شهر أغسطس أحر شهور العام، أما «ياسر» فقد كان يشعر بمسئوليته عما حدث؛ فهو المسئول عن تسيير القارب، وهو الوحيد بينهم الذي يُجيد فنون البحر، وإذا حدث أي شيءٍ لهم؛ فهو الوحيد أيضًا الذي سيحاسب.

وكانت المياه قد تحوَّلت إلى اللون الأسود، الأفق، السماء، وبدت أنوار «أبو قير» وكأنها ثقوب في هذا الثوب الأسود الذي يلفُّ الدنيا … والقارب تَلعب به الأمواج العالية والأولاد الثلاثة يُحاولون التوازن، والإبقاء على القارب في اتجاه شاطئ «أبو قير»، حتى لا يتوهوا في الظُّلمة إلى الأبد، ولكن الأمواج كانت تُلقي بهم في الاتجاه المضاد، ناحية الجزيرة التي كانوا

أقرب إليها من الأرض، وتذكَّر «تختخ» الصخور المدبَّبة، وأدرك أن الأمواج إذا نجحت في إلقاء القارب على الصخور، فسوف يتحطَّم تمامًا، وسوف يُصابون جميعًا إصاباتٍ بالغة.

صاح «تختخ» في الظلام: «ياسر» ... «ياسر».

رد «ياسر» في صوتٍ مرتفع: ماذا تُريد؟

تختخ: أفضل حلٍّ أن نلقي بأنفسنا في المياه، ونُمسِك بحبال القارب ونجره في اتجاه شاطئ «أبو قير»، فلن نستطيع السيطرة عليه بهذه الطريقة، وسوف نَرتطم بالصخور، ويتحطَّم القارب.

صاح «ياسر»: إن في هذه خطورة كبيرة علينا، ومن الأفضل أن نوقف الموتور، ونستعمل المجاديف، فلعلَّ ذلك يُمكننا من السيطرة على القارب.

وفعلًا أوقف «ياسر» الموتور، وأخرج المجاديف من أماكنها، وأمسك هو بمجداف، وأمسك «تختخ» بآخر، في حين أمسك «محب» بالمجداف الذي استخدموه كدفَّة، وأخذوا يجدفون محاولين الابتعاد عن صخور شاطئ الجزيرة، متَّجهين بقدر ما يستطيعون إلى ناحية شاطئ البحر الميت حيث البحر هادئ.

في تلك الأثناء كان الأستاذ «شوكت» وزوجته وبقية الأصدقاء يجلسون في قلق في انتظار ظهور الأولاد الثلاثة، فلما مضى الوقت دون أن يظهروا قالت «أم ياسر»: من الأفضل أن نتصل برجال السواحل، إنهم أصدقاؤك، وسوف يهتمُّون بالبحث عن القارب.

رد الأستاذ «شوكت» وهو يرتدي ثيابه على عجل: للأسف، إن مراكبَنا كلها في الصيد، وإلا كنت أخرجتها الآن للبحث عنهم، على كل حالٍ سوف أذهب إلى رجال السواحل، وسأتحدَّث مع الرائد «سراج»، وأعتقد أنه سيُساعدنا.

عاطف: هل أستطيع أن آتي معك يا خالي؟

شوكت: نعم.

وبعد لحظات خرجا، وكانت الريح تَعصِف والموج يضرب الشاطئ بعنف، فقال الأستاذ شوكت: إنهم يُلاقون وقتًا عصيبًا، وبرغم أن «ياسر» مُتمرِّن على ركوب البحر، فمن الصعب أن يسيطر على القارب في هذا الجو المُضطرِب.

وركبا السيارة، واتجها إلى قسم خفر السواحل الذي يقع على شاطئ البحر الميت، ولحسن الحظ أنهما وجدا الرائد «سراج» هناك، فشرح له الأستاذ «شوكت» ما حدث بسرعة فقال: سنُبحرُ فورًا على ظهر القارب الكبير بالأنوار الكشافة، وبأساليب الإنقاذ.

ودق الرائد «سراج» جرسًا دوى في المكان، فأسرع البحارة إلى القارب، وقفز خلفهم الرائد «سراج» وبقي «شوكت» و«عاطف» على الشاطئ، وقد أطلقا بصرهما خلف القارب الذي سرعان ما غاب في الظلام.

ظل الأولاد الثلاثة يُقاومون الأمواج، ويُحاولون السيطرة على القارب الذي كانت الأمواج تسحبه ناحية الجزيرة، وأحسَّ «محب» بدُوَار أخذ يتزايد شيئًا فشيئًا، وهو يحاول التماسك، ولكنه في النهاية أحسَّ أن الدنيا تدور به، وأن معدته تُؤلِمُه بشدة، فلم يعد يستطيع السيطرة على نفسه، واضطر إلى الانحناء على جانب القارب، وأخذ يتقيأ بشدة، وأدرك «تختخ» و«ياسر» المحنة التي يمرُّ بها «محب»، ولكنهما لم يستطيعا أن يمدا له يد المساعدة؛ فقد كانا مُهتمَّين بالمجدافين والريح تُصفِّر حولهما، والماء يُغرق القارب، ويكاد يجرفهما معه لولا أنهما كانا يضغطان بأقدامهما على جانبي القارب المهتز.

أخذ «تختخ» يُفكِّر في هذه المغامرة التي لم تكن على البال، لقد كانت جديدة عليه فلم يسبق له أن مرَّ بتجربةٍ مثلها، لهذا كان يشعر في نفسه بنوعٍ من السعادة والتحدي؛ فهو يحب التجارب الجديدة، فالتجربة كما يرى هي التي تصقل الإنسان، وتجعله أصلب عودًا، وأخذ ينظر في الظلام، وخُيِّل إليه أنه يرى ضوءًا يخرج من الجزيرة في شكل ومضاتٍ سريعة، ولكنه لم يُلقِ بالًا إليه.

ظل الصراع مستمرًّا بين ركاب القارب الصغير والبحر الهائج أكثر من ساعة، وبدأ الصديقان يشعران بالتعب والبرد، خاصةً أن المياه كانت قد أغرقتهما، وكان «محب» أكثر تعبًا، وإن كان قد تحسَّن قليلًا بعد أن تقيأ.

صاح «تختخ» حتى يسمعه «ياسر»: أعتقد أن علينا أن نُوقد مصباحًا أو شيئًا يدل علينا.

ياسر: معك حق، لقد نسيتُ هذا تمامًا، مع أنه مهم، فقد يرانا قارب آخر فليسرع إلى إنقاذنا.

وقام «ياسر» بإضاءة أحد مصابيح القارب، فانعكس الضوء الخارج منه على الأمواج، وأحسُّوا بشيءٍ من الطمأنينة.

وقف الرائد «سراج» على ظهر القارب الكبير السريع ينظر حوله في الظلام مُحاولًا أن يرى القارب الصغير، وهم يشقُّون طريقهم إلى جزيرة «نلسن»، حيث يحتمل أن يكون القارب قريبًا منها، واستطاعوا بسرعتهم الكبيرة أن يصلوا بعد ربع ساعة إلى قرب الجزيرة، ولكنَّهم لم يروا شيئًا، فأصدر «الرائد» تعليماته بأن يدور القارب دورة كاملة

حول الجزيرة، وعندما أصبحوا عند الطرف الجنوبي منها، ظهر الضوء المهتز الذي يَصدُر عن مصباح القارب الصغير، وصاح «سراج»: درجة إلى اليمين. واستدار القارب الكبير وشق طريقه وسط الأمواج العالية، وفي دقائق قليلة كان يقترب من القارب الصغير، الذي لم يَكد ركابه الثلاثة يرون أنوار القلوب الكبيرة، حتى أخذوا يَصيحُون في الظلام ليَلفتُوا الأنظار إليهم.

اقترب القارب الكبير من الصغير، كأنه أبٌ يسرع إلى ولده، وأصدر الرائد «سراج» أوامر فأُلقيَ «حبل» إلى القارب التقطه «ياسر» بمهارة، ثم ربطه بمقدمة القارب، ولم تمضِ لحظات حتى كان القارب الصغير بجوار الكبير، وأُنزلَ سلَّمٌ من الحبال أسرع الأصدقاء الثلاثة إليه، وتسلقوه إلى ظهر القارب الكبير.

قصة المهرب

تلقَّى الرائد «سراج» الأصدقاء الثلاثة بابتسامةٍ مُشجِّعة، وسلم عليهم قائلًا: لقد قمتم بعملٍ من أعمال البطولة؛ إذ استطعتم الاحتفاظ بهذا القارب الصغير تمامًا في هذه العاصفة، وإن كنت ألومكم لخروجكم به في هذه الريح والظلام.

كان «ياسر» يعرف «سراج»؛ فقدم له صديقَيه «تختخ» و«محب»، فرحب بهما الرائد، ثم أخذهم إلى قمرته الدافئة، وطلب لهم ثلاثة أكواب من الشاي الساخن، ثم قام أحد البحارة بتجفيف ثيابهم، والتفَّ كلٌّ منهم ببطانية من الصوف، فأحسوا لأول مرة بالدفء في هذه الليلة العاصفة.

قال «ياسر»: نحن مدينون لك بالشكر؛ لأنك أنقذتنا.

سراج: لا شكر على واجب، إنَّ هذا بعض واجبنا، والمهم أن نصل إلى الشاطئ بسرعة؛ فوالدك في غاية القلق عليك.

ياسر: لقد سببتُ له إزعاجًا شديدًا فعلًا.

سراج: ولماذا خرجتُم في هذا الجو العاصف؟

ياسر: لقد نسينا الكاميرا الخاصة بوالدي، وهي كاميرا ثمينة تُساوي أكثر من مائة جنيه، فعُدنا لإحضارها حيث فاجأتنا العاصفة.

سراج: لقد رأيتُ هذه الكاميرا مع والدك، إنها كاميرا ثمينة فعلًا، وطبعًا لم تُحضرُوها.

ياسر: لا، إننا لم نستطع الاقتراب من الجزيرة خوفًا من أن نصطدم بالصخور، ويتحطم بنا القارب.

سراج: هذا إجراء سليم، وعلى كل حال سوف أرسل بعض رجالي في الصباح الباكر لإحضار الكاميرا، ولا شك أنها ستبقى مكانها، فلا أحد سيذهب إلى الجزيرة في هذا الظلام.

ياسر: إنني لم أُعرِّفك جيدًا بصديقي «توفيق» أو «تختخ» كما يدعوه أصدقاؤه، إنه المغامر الذي حكيتُ لك عنه كثيرًا عندما كنتَ تزورُنا؛ فهو يهوى حل الألغاز كما تعرف، ويشترك معه أصدقاؤه الأربعة؛ ابن عمتي «عاطف» وأخته «لوزة» وهذا الصديق «محب» وأخته «نوسة»، ويطلقون على أنفسهم اسم المغامرين الخمسة.

نظر «سراج» إلى «تختخ» باهتمام، ثم قال: نعم إنني أذكر أحاديثك عنهم جميعًا، وأذكر أنك قلتَ لي إنهم يتعاونون مع مفتش الشرطة الشهير «سامي».

ياسر: تمامًا، وها هم الآن بيننا، أليس عندك لغزٌ تُريد حله؟

ضحك الرائد «سراج» وهو يقول: ليس عندنا ألغاز معقدة، فمهمتنا هنا ضبط مهربي المخدرات، وصائدي الأسماك الذين يُخالفون القانون، وكلها عمليات تحتاج إلى مجهودٍ بدني أكثر مما تحتاج إلى مجهودٍ عقلي.

ياسر: ولكن هناك بعض الحالات التي تُشبه الألغاز، مثل حالة المهرِّب «الحنش»، الذي استطاع أن يَختفي منكم فترة طويلة من الوقت.

سراج: فعلًا، ربما كان هو المهرِّب الوحيد الذي يستخدم ذكاءه في الاختفاء، لقد كان أشبه بالأسطورة، وكان الناس هنا يتحدثون عنه وكأنه شبح لا يُمكن لأحدٍ أن يراه، ولكن هذه الأسطورة انتهت الآن؛ فقد غرق «الحنش» وقبضنا على أكثر أفراد عصابته.

وتحدثَ «تختخ» لأول مرة، فقال بعد أن رشف كمية من الشاي الساخن: لقد قرأت عن مطاردتكم لـ «الحنش» في الجرائد، وعلمتُ أنه غرق، ولكن هل عثرتم على جثته؟

بدا على وجه الرائد «سراج» نوعٌ من الضيق وهو يقول: وحتى الآن لم نَعثُر عليها، ولكننا واثقون أنه غرق …

تختخ: هل تستطيع أن تَرويَ لنا قصته كاملة؟

سراج: أعتقد أن الوقت لن يسمح؛ فسوف نصل قريبًا إلى الشاطئ، ولكن لا بأس أن أروي لكم طرفًا منها، ثم نكملها في يومٍ آخر.

كانت الأمواج تلعب بالقارب السريع وهو يشقُّ طريقه إلى الشاطئ، والريح تقصف في الخارج، ولكن قمرة القائد كانت دافئة والأصدقاء الثلاثة يُركِّزون أنظارهم على الرائد «سراج»، الذي بدأ يقصُّ عليهم قصة المُهرِّب الخطير: سمعت عن «الحنش» وأنا ما زلت طالبًا في الكلية البحرية، كان ضباطنا يتحدثون عنه كثيرًا، وكان واحد منهم فقط هو الذي رآه؛ فـ «الحنش» لم يكن يظهر إلا لأفراد عصابته، ليس لكل العصابة، بل لبعضهم فقط؛ فقد كان شديد الحذر، شديد الدهاء، وكان هذا الضابط — واسمه «منسي» — قد

التقى وجهًا لوجه مع «الحنش» في مُطاردةٍ مثيرةٍ قرب «رشيد»، ولكن «الحنش» استطاع في اللحظة الأخيرة أن يَهرُب، ومن يومها لم يره أحد. وقد وصف «منسي» هذا المهرِّب الخطير بأنه طويل القامة، أسمر واسع العينين، شديد القوة، ومن المعروف عن «الحنش» أنه يحمل في يده مدفعًا رشاشًا حيثما تحرَّك، وهو يُجيد ضرب النار والعوم، ويحيط نفسه بعصابةٍ من الرجال الأشداء المخلصين، الذين اشترى إخلاصهم بالمال الوفير الذي يكسبه من التهريب.

وصمت الرائد «سراج» لحظات، ثم عاد يقول: وكما تعرفون فإن المخدرات ممنوعة في بلادنا؛ لأنها ضارة بالإنسان أشد الضرر، تُحوِّل الشخص إلى إنسانٍ كسول، مشتَّت الذهن، غير قادر على العمل، وكثيرًا ما تَنتهي به إلى الجنون. وتُحاول «إسرائيل» تهريب المخدرات إلى بلادنا لهذا السبب، وتستعين ببعض عصابات التهريب لإدخال هذه السموم إلى البلاد، وقد استطاعت حكومتنا أن تقضيَ على أغلب المهربين، ولم يكن قد بقي منهم إلا عددٌ قليلٌ منهم «الحنش»، وقد كان القضاء عليه ضربة قوية لـ «إسرائيل» …

قال «تختخ»: إنني أود أن أسمع منك قصة مطاردته وغرقه كاملة؛ فإن الجرائد لم تذكر تفاصيل هذا الحادث الهام.

سراج: تستطيع الحضور غدًا إلى القسم لأرويَ لك بقية القصة … فإنني أعتقد أننا وصلنا إلى الشاطئ …

وفعلًا، كان القارب قد هدَّأ من سرعته، وأحسَّ الأصدقاء الثلاثة بصدمة خفيفة، فأدركوا أن القارب قد ارتطم بالشاطئ، وهكذا قاموا، يتقدمهم الرائد «سراج»، وصعدوا إلى سطح القارب، حيث كانت الريح ما زالت قوية، ثم نزلوا إلى الشاطئ، واستقبلهم الأستاذ «شوكت» و«عاطف» بعديدٍ من الأسئلة عن مغامرتهم في الظلام، فأخذ الثلاثة يَروون عليه ما كابدوه، ثم سحبوا القارب الصغير إلى الشاطئ، وركبوا السيارة، وتوجَّهُوا إلى المنزل …

بعد أن غيَّر الثلاثة ثيابهم بثيابٍ جافة، جلسوا يَحكُون مغامرتهم بين التعليقات والاستفسارات، وكانت والدة «ياسر» غاضبة قليلًا، خاصةً أنهم لم يُحضروا الكاميرا معهم، ولكن «ياسر» طمأنها أن الرائد «سراج» سوف يُرسل رجاله في الصباح الباكر لإحضارها، وقال إنه أوضح له المكان الذي كانوا يلعبون فيه. وبعد سهرة مُمتعة مع مغامرات الأصدقاء الخمسة أوى كل واحدٍ إلى فراشه، واستغرقوا جميعًا في نومٍ عميق …

في صباح اليوم التالي خرج «المغامرون الخمسة» ومعهم «ياسر» و«داليا» متَّجهين على الأقدام إلى شاطئ البحر الميت، ليُقابلوا الرائد «سراج» كما اتفقوا أمس، وللأسف كان في انتظارهم خبر سيئ.

قال الرائد «سراج» بعد أن رحَّب بهم: يؤسفني أن أبلغكم أننا لم نجد الكاميرا على الجزيرة … وقد يكون رجالي لم يَبحثُوا جيدًا أو تكون الريح القوية قد قذفت بها إلى البحر …

ياسر (بضيق): هذا شيءٌ مؤسفٌ للغاية، ولكن من المؤكد أن الريح لم تقذف بها إلى البحر؛ فهي كاميرا ثقيلة ومهما كانت قوة الريح فلن تستطيع أن تحركها من مكانها …

سراج: لعلَّكم وضعتموها تحت حجر، أو في مكانٍ غير واضح ويُمكنكم الذهاب للبحث عنها …

ياسر: إنَّ والدي موجود الآن في الحلقة، ومراكبنا كلها هنا وفي إمكاننا أن نذهب فورًا إلى الجزيرة للبحث عن الكاميرا.

سراج: وأنا في انتظاركم؛ لأكمل لكم قصة المهرِّب كما طلب «توفيق» … وسأقضي بعض مشاغلي حتى عودتكم …

لم يتحدث «تختخ» مطلقًا، بل ظل في تفكيرٍ عميق، كان مُتأكِّدًا أن الكاميرا لم تَطِر مع الريح، لقد كانت ثقيلة الوزن، ولا تستطيع أيةُ ريح أن تَقذف بها بعيدًا، بقي احتمالان لاختفائها، إما أن تكون مُختفية تحت صخرة، أو في أحد الثقوب في الجزيرة، وإما أن يكون هناك شخص أو أشخاص قد زاروا الجزيرة بعد خروجهم منها، وأخذوا الكاميرا …

ظل «تختخ» صامتًا في حين كان «ياسر» يستأذن أباه في ركوب أحد مراكب الصيد الكبيرة، والذهاب إلى الجزيرة للبحث عن الكاميرا، وعندما وافق والده استقلُّوا جميعًا المركب مع بحارته الذين سرعان ما أداروا الموتور الضخم، فارتفع وانطلق المركب بسرعة إلى الجزيرة …

وقف «تختخ» بجوار حاجز السفينة يتأمَّل البحر الهادئ متذكرًا ليلة أمس، والمغامرة القاسية التي مروا بها، وأخرجه من تفكيره صوت «لوزة»، وهي تقف بجانبه قائلة: فيم تفكر؟

رد «تختخ» مُبتسمًا: حاولي أن تعرفي؟

لوزة: لا شك أنك تفكر في لغز ضياع الكاميرا …

تختخ: إنكِ دائمًا قادرة على قراءة أفكاري …

لوزة: وهل كوَّنتَ فكرة معينة عن ضياع الكاميرا؟

تختخ: ليس بعد …

لوزة: لعلَّ ضياعها يكون لغزًا نعمل على حله، وهكذا نكون قد استمتعنا برحلةٍ ظريفةٍ إلى هذا المكان، وفي نفس الوقت حللنا لغزًا.

تختخ: أرجو ذلك، وما يُهمني أكثر هو العثور على الكاميرا، فإنني أشعر ببعض الذنب لضياعها.

لم يمضِ وقت طويل، حتى بدأت معالم الجزيرة تتضح شيئًا فشيئًا، ووقف الأصدقاء ينظرون إليها من بعيد … فقال «تختخ»: مع من كانت الكاميرا آخر مرة؟

ياسر: كانت مع «داليا» فبعد أن التقطتُ لكم بعض الصور التذكارية أعطيتُها لها لتحتفظ بها.

قالت داليا: أذكر أنني وضعتها بجواري ساعة الغداء، ونسيتها عندما ركبنا القارب عائدين.

تختخ: معنى هذا أننا إذا لم نجدها في مكان الغداء تكون قد ضاعَت.

ولم يردَّ أحد من الأصدقاء، وكانوا جميعًا يأمُلُون في أن يجدوا الكاميرا، إلا «تختخ» الذي كان يظن أن يدًا مجهولة قد أخذت الكاميرا، وأنهم لن يجدوها في الجزيرة! وقد صدق ظن «تختخ»، فبعد أن رسا المركب على الشاطئ، وصعد الأصدقاء للبحث عنها في مكان الغداء لم يجدوها، ثم طافوا بالجزيرة كلها دون جدوى …

ذهب «تختخ» للبحث عن بقعة الماء الصغيرة التي وجدها أمس قرب منتصَف الجزيرة، فوجدها قد ازدادت اتساعًا، فأدرك أن عاصفة أمس رفعت المياه في المجرى الذي يقع تحت الجزيرة، ثم صعدت المياه من خلال الشرخ إلى السطح، وقرَّر — لزيادة التأكد — أن يطلب من البحارة أن يدوروا حول الجزيرة دورة كاملة، لعله يرى القناة التي تقع في أسفل الجزيرة …

ركب الأصدقاء السفينة عائدين، وقد خيم الصمت الحزين عليهم لضياع الكاميرا.

وذهب «تختخ» إلى ربان المركب، وطلب منه أن يدور حول الجزيرة، ووقف قرب الحاجز يرقب شاطئ الجزيرة الصخري باهتمام، ولكنه لم يجد ما كان يبحث عنه تمامًا، فليست هناك فتحات في جدار الجزيرة الصخري … وفكَّر «تختخ» أن الفتحة يُمكن أن تكون موجودة تحت الماء … فلا تظهر من هذا البعد … وأخذ يُدقِّق النظر وبدا له أنه يرى أن في الطرف الشمالي جزءًا من المياه قرب الشاطئ يبدو أكثر عمقًا من بقية الأجزاء، ومن الممكن أن يكون تحته هذا النفق الذي يبحث عنه.

بعض الاستنتاجات

عاد المركب بالأصدقاء إلى الشاطئ، واتجه الجميع إلى القسم، حيث كان الرائد «سراج» في انتظارهم، ولكنه اعتذر عن عدم إمكانه رواية بقية قصة المهرب لهم، ووعد بزيارتهم في فيلا الأستاذ «شوكت» في المساء؛ ليروي لهم بقية القصة، وفي المساء حضر «سراج» يرتدي ملابس عادية، وأحاط به الأولاد يستمعون في اهتمامٍ إلى حديثه عن المهرب الخطير.

قال «سراج»: يجب أن تعرفوا الطريق الذي تُهرَّب منه المخدرات في البحر؛ لأن الأسلوب هنا على شواطئ الإسكندرية يَختلف عن طريق التهريب في «قناة السويس»، وهما أكبر طريقين لدخول المخدرات إلى بلادنا، وبالنسبة للتهريب عن طريق البحر المتوسط، فعادةً يكون المهرب الكبير له عملاء في الخارج ... أعني في بعض الدول العربية ... أو عن طريق بعض الوسطاء مع «إسرائيل»، وعندما يتم الاتفاق على تهريب كمية إلى جمهورية مصر العربية، فإن المهرب إما أن يكون عنده مركب لتهريب المخدرات عليها، وإما أن يتَّفق مع بعض أصحاب المراكب لنقل البضاعة لحسابه. وهو عادةً يُفضِّل الطريقة الثانية؛ لأن أصحاب المراكب يكونون عادةً بعيدًا عن الشبهات، مما يُسهِّل لهم دخول الميناء دون أن يُفتِّشهم أحد، فإذا اتفق المهرب مع مركب من مراكب الصيد، خرج المركب ومعه كلمة السر؛ حيث يَلتقي في عرض البحر بالسفينة القادمة من الخارج، فيتبادلان كلمة السر، ثم تنقل المخدرات إلى مركب الصيد، ويتم إخفاؤها تحت السمك.

وصمت الرائد «سراج» قليلًا ... ثم قال: ونحن أيضًا — أعني المكلَّفين بمقاومة التهريب — لنا عملاء في موانئ التهريب الخارجية، وهؤلاء العملاء سريُّون لا يعرفهم أحد. ومهمتهم معرفة أخبار الاتفاقات بين المهربين، وإخطارنا عن مواعيد وصول سفن التهريب إلى عرض البحر، حيث ننتظرهم وننقضُّ عليهم في الوقت المناسب، أو ننتظر سفينة التهريب حتى تقترب من البر ونحن نراقبها من بعيد، ثم نأسرُها عند الشاطئ،

والآن بعد أن استمعتم إلى هذه المعلومات عن طريق التهريب، أستطيع أن أشرح لكم كيف طاردنا «الحنش» ...

وفكر الرائد «سراج» لحظات وقال: أخطَرَنا أحد عملائنا في الخارج أن كمية كبيرة من المخدرات قد تمَّ الاتفاق على تهريبها إلى بلادنا، وأن سفينة تجارية ستَقترب من شواطئنا في منتصف الليل يوم ١٥ يوليو، حيث يَلتقي بها مركب صيد يملكه رجل يدعي «جودة»، ثم تنقل المخدرات إلى مركب «جودة» الذي سيُخفيها تحت السمك، ثم يدخل بها ميناء «أبو قير»، وكانت خطة العمل بالنسبة لنا أن نترك المخدرات تَنقَل إلى مركب الصيد، ثم نمسك بالمركب عند اقترابه من الميناء ... وذلك أضمن لنا؛ لأننا في حالاتٍ كثيرة عندما كنا نُهاجم في عرض البحر، كان المهرِّبون يتمكنون من الإفلات في الظلام، وهكذا انتظرنا على بُعد نحو كيلومترًا من «أبو قير»، حتى شاهدنا مركب الصيد وهو يقترب، فأمرناه بالوقوف، وبالطبع لم يكن في إمكانه أن يهرب، فقاربنا أسرع ونحن مسلحون، ولكن ما كِدنا نَقترب، حتى أطلق علينا المهربون سيلًا من الرصاص؛ فقد كانوا مسلحين، بادلناهم إطلاق الرصاص، فأداروا الموتور مرةً أخرى، وحاوَلُوا العودة إلى عرض البحر، ولكنَّا استطعنا اللحاق بهم سريعًا، وظلَلنا نُبادلهم إطلاق الرصاص، حتى فرغ رصاصهم، واضطرُّوا للوقوف تمامًا، واقتربنا منهم ونحن نُنذرهم بواسطة «الميكروفون»، ونُسلِّط عليهم أضواء القارب، وفجأةً شاهَدنا أحد المهرِّبين يقف على ظهر المركب مستعدًّا لإلقاء نفسِه في المياه، واستطعت أن أصيبه بالرصاص، فترنَّح ووقع في الماء، وعندما أطبقنا على المركب، واستجوبْنا مَن فيه، علمنا أن الرجل الذي أصبتُه وسقط في الماء لم يكن إلا المهرِّب الكبير «الحنش»، فأخذنا نُسلِّط أضواء القارب على المياه لعله يظهر، ولكن لم يظهر له أثر، فأخذنا طريقنا إلى ميناء الوقوف في البحر الميت، ونشرنا رجالنا على الساحل، لعلَّ «الحنش» لأي سببٍ يتمكَّن من العوم، حتى الشاطئ، ولكن حتى الصباح لم يظهر، وهكذا رجحنا أنه انتهى إلى الأبد، ومات غريقًا بعد إصابته بالرصاص.

ساد الصمت بعد هذه القصة المثيرة، وأخذ الأولاد يتبادلون النظرات، وقد سحرتهم المطاردة، ثم كسر هذا الصمت صوت «تختخ» وهو يقول: ما هو الطريق الذي سلكتُموه عند عودتكم إلى الميناء؟

سراج: ليس هناك سوى طريقٍ واحدٍ للوصول إلى البحر الميت، هو المرور في الممر المائي بين شاطئ «أبو قير» الشمالي، وجزيرة «نلسن»، ثم نعود إلى الشاطئ الجنوبي لـ «أبو قير»، حيث ميناء الرسو الذي زرتُموني فيه.

تختخ: وما هي المسافة التي كانت بين منطقة المعركة، وبين جزيرة «نلسن»؟

فكر الرائد «سراج»، ثم قال: ربما نحو عشرة كليو مترات.

تختخ: هل كان هناك حرسٌ من رجالكم على جزيرة «نلسن»؟

سراج: لا، لم نضع حرسًا هناك.

تختخ: ألا يمكن أن يكون المهرِّب قد استطاع العوم حتى جزيرة «نلسن»، حيث اختفى هناك.

سراج: لا يُمكن لرجلٍ مصابٍ برصاص مدفعٍ رشاش من أن يعوم هذه المسافة، وفي الوقت نفسه ليس هناك في جزيرة «نلسن» مكان يُمكن أن يأوي إليه «الحنش» في جزيرةٍ مكشوفة.

وانتقل الحديث بعد ذلك إلى موضوعاتٍ أخرى، حتى اقتربت السهرة من نهايتها، وودع الأصدقاء الرائد «سراج»، حتى الباب وانصرف.

وفي صباح اليوم التالي، انقسم الأصدقاء إلى فريقَين؛ فريقٌ فضل أن يذهب إلى «البلاج» لقضاء وقتٍ في العوم، وفريق ذهب إلى شاطئ البحر الميت للإشراف على إصلاح دفَّة القارب التي انكسرت، وكان في الفريق الأخير الأصدقاء الثلاثة «ياسر» و«تختخ» و«محب» الذين قاموا بالمغامرة في البحر ليلًا.

حضر النجار الذي سيصلح الدفة، وجلس الأصدقاء معه يناقشونه في صنعته، أما «تختخ» فقد جلس يفكر، وهو ينظر إلى «البحر الميت»، وقرَّر أن يقوم مرةً أخرى بزيارةٍ للجزيرة. فقد كانت في رأسه فكرة معينة، يريد أن يتأكد منها، وكانت المشكلة أن الأستاذ «شوكت» قد لا يوافق على إعطائهم القارب مرةً أخرى، حتى لا يتعرَّضوا لمخاطر، كما تعرَّضوا في الرحلة السابقة.

قال «تختخ» موجهًا حديثه إلى «ياسر»: هل هناك قوارب يُمكن استئجارها للذهاب إلى جزيرة «نلسن»؟

رد «ياسر»: نعم، ولكن في هذه الحالة لا بدَّ أن يذهب صاحب القارب معك؛ لأنهم يخافون على القوارب أن تتحطَّم على صخور الجزيرة، والرسو هناك يحتاج إلى مهارةٍ وتدريب.

ظل الإصلاح مستمرًّا في الدفة أغلب النهار، وعندما حان وقت الغداء انصرف الأصدقاء عائدين إلى المنزل مشيًا على الأقدام، وعندما وصلوا إلى المنزل وجدوا الغداء معدًّا منذ فترة طويلة، فتناولوا غداءهم، ثم تحدثوا قليلًا، ثم صحبهم الأستاذ «شوكت» في سيارته إلى شاطئ البحر الميت لمحاسَبة النجار على تكاليف إصلاح القارب.

وفي الطريق قال «تختخ» محدثًا الأستاذ «شوكت»: إني آسف على ضياع الكاميرا وكسر دفة القارب، لقد كان حظًّا سيئًا.

رد الأستاذ «شوكت» مبتسمًا: المهم أنكم لم تُصابوا بسوء، لقد واجهنا مشاكل أكبر من هذا بكثير؛ فالبحر له مفاجآت، وكثيرًا ما أصيبت بعض مراكبي في رحلات الصيد، إنها مسألة تعوَّدتُ عليها!

تختخ: في هذه الحالة يُمكن أن توافق على أن نقوم برحلة أخرى إلى الجزيرة؟ إنني أتمنى أن أزورها مرة ثانية.

قال الأستاذ «شوكت»: أنتم ضيوفنا، ومن غير المُمكن أن نردَّ لكم طلبًا، ولكني في الواقع متردِّد خوفًا عليكم من البحر.

تختخ: أرجو أن يظل الجو حسنًا حتى نعود.

الأستاذ «شوكت»: في هذه الحالة من الأفضل أن نسأل بعض الصيادين المتمرسين بالصيد، إنهم يعرفون حالة الجو أكثر مما تعرفه الأرصاد الجوية، خاصةً في هذه المنطقة، ونستطيع أن نختار يومًا نضمن فيه هدوء البحر، ولا مانع عندي من أن تقوموا برحلةٍ ثانية ما دامت هذه رغبتكم.

شكر «تختخ» الأستاذ «شوكت» بحرارة، وكانوا قد وصلوا إلى شاطئ «البحر الميت»، ووجدوا النجار قد انتهى من إصلاح الدفة، وقرر الأصدقاء الثلاثة أن يقوموا معًا بتنظيف القارب، وكانت مهمة ظريفة قاموا بها وهم سعداء، فقد كانوا يُعدُّون القارب لرحلةٍ أخرى.

قضى «تختخ» اليومين التاليين يمارس هوايةً غريبة هي هواية الغطس، يطلب من «لوزة» التي كانت تجلس على صخرةٍ قريبةٍ منه أن تَحسب الوقت الذي يقضيه تحت الماء، وبينما كان الأصدقاء يَلهون بلعب «الراكت» أو التسابق في الجري أو العوم ظل «تختخ» مواظبًا على تمريناته في الغطس، وكان كلما خرج من المياه، وقد انتفخ وجهه من فرط الجهد، قالت «لوزة» له مُشفِقة: ما فائدة الذي تفعله هذا؟ لقد جئنا لكي نلهو ونلعب ونتمتَّع بالهواء النقي، وليس لحرمان أنفسنا من الهواء كما تفعل أنت، إلا إذا كنت تنوي أن تدخل مسابقة في الغطس مثلًا، وأؤكد لك في هذه الحالة أنك لن تكسب أي سباق.

كان «تختخ» يبتسم، وهو يستمع إلى حديثها اللطيف، ثم يجلس بجوارها يرتاح قليلًا، ثم يعود إلى القفز إلى الماء مرةً أخرى، والغطس في حين تكون عيناها مثبتتين على عقرب الدقائق تحسب له الوقت الذي قضاه تحت الماء.

وكان الأصدقاء كثيرًا ما يشتركون معه في مسابقات للغطس تحت إشراف «لوزة»، وقد أتت التمارين بثمارها، فقد استطاع «تختخ» أن يكسب السباق كل مرة، وفي اليوم

الرابع قال لها: ها أنا ذا قد أضفتُ إلى ما أعرف شيئًا جديدًا، في حين أنكِ لم تُضيفي شيئًا، إن المهم في حياة الإنسان أن يتعلم جديدًا باستمرار، وإلا توقفت معرفته.

في مساء ذلك اليوم سأل «تختخ» «ياسر» فجأة: هل عندك أنبوبة من أنابيب التنفس تحت الماء يا «ياسر»؟

قال «ياسر»: أظن أن هناك واحدة في مخزن أدوات الصيد، لقد اشتريتُها للصيد تحت الماء، ولكني لم أكن أصبر طويلًا.

صراع تحت الماء

ابتسم الحظ لـ «تختخ» في اليوم التالي؛ فقد أخبرهم الأستاذ «شوكت» أن الجو في هذا اليوم سيظل هادئًا، وفي إمكانهم الخروج في رحلة بالقارب إلى الجزيرة، فضج الأولاد بالضحك والتعليقات المرحة، ولكن «تختخ» طلب منهم أن يسمحوا له هو و«ياسر» و«عاطف» و«محب» فقط بالذهاب في هذه المرة على أن يأخذهم جميعًا في مرةٍ تالية. احتجَّت الفتيات على هذه التفرقة، ولكن «تختخ» قال لهن إنه قد يعود بمغامرةٍ جديدة، إذا تركنَه والأصدقاء الثلاثة يقومون بهذه الرحلة وحدهم، وهنا وافقت الفتيات.

لبس الأصدقاء ملابس خفيفة فوق «المايوهات»، ثم انطلقوا في طريقهم إلى «البحر الميت»، وقد أخذ «تختخ» معه أنبوبة الغطس، وبندقية الصيد تحت الماء، والزعانف التي تُلبس في الأقدام، وتُساعد على العوم.

وكان القارب مجهزًا في انتظارهم، فقفزوا فيه، وسرعان ما أدار «ياسر» الموتور، وانطلقوا في طريقهم إلى جزيرة «نلسن».

قال «عاطف»: أعتقد يا «تختخ» أنك لا تأخذُنا معك في هذه الرحلة لمجرد الفسحة، إنني أراقبك منذ أيام، وأعتقد أن في رأسك فكرةً معينة تُريد التحقُّق منها، فهل أنا مُوفَّق في استنتاجي؟

قال «تختخ»، وهو يمدُّ يده إلى مياه البحر يعابثها: لقد وُفِّقت، ولكن الحقيقة أن في رأسي فكرتَين، وليس فكرة واحدة.

محب: أليس من حقِّنا أن نعرفهما قبل أن نصل إلى الجزيرة.

تختخ: نعم، ولكن قد يَثبت أن الفكرتين غير صحيحتين، فأكون موضع سخريتكم جميعًا.

قال عاطف مبتسمًا: إننا نثق فيك، وعلى كل حال إذا لم تتحقَّق الفكرتان، فلن نخسر شيئًا، ونكون قد قضينا وقتًا مُمتعًا.

تختخ: إذن استمعُوا ... عند زيارتها للجزيرة لاحظت وجود بقعة من الماء في وسطها، وهو شيء مُدهِش؛ فنحن لسْنا في فصل الشتاء، وإلا لقلتُ إنَّها بفعل المطر، والأمواج مهما ارتفعَت فلن تستطيع أن تُوصِّل الماء إلى سطح الجزيرة على هذا البعد.

ياسر: إذن فكيف علَّلت وجودها؟

تختخ: تصوَّرت أن هناك مَجرى من الماء تحت الجزيرة يصلُ إلى وسطها، وعن طريق شرخ في الصخور يُمكن في حالة ارتفاع الأمواج أن يُوصل الماء إلى سطح الجزيرة، وليس هناك حلٌّ ثالث.

محب: وما قيمة هذا الاكتشاف؟

تختخ: إنه مُرتبط بالفكرة الثانية التي قد لا توافقون عليها.

عاطف: وما هي الفكرة الثانية؟

تختخ: فكرة أن «الحنش» هذا المهرِّب الخطير الذي استطاع الهرب من رجال السواحل كل هذه السنوات، كان يختفي منهم في جزيرة «نلسن»، بل إنني أظن أنه حي وما زال هناك.

صاح الأصدقاء الثلاثة في نفسٍ واحد تقريبًا: هذه تخاريف، ولعلَّ شمس «أبو قير» قد أثرت في رأسك، فأصبحت تتخيَّل أشياء لا وجود لها.

وأضاف «ياسر»: كما أنني أذكر أنكَ قلت هذه الفكرة للرائد «سراج» فلم يقتنع بها؛ فقد كان «الحنش» مصابًا بالرصاص عندما وقع في الماء، ولا يُمكن لرجلٍ مُصاب برصاص مدفع رشاش أن يتمكَّن من العوم كل هذه المسافة إلى جزيرة «نلسن».

قال «تختخ» في هدوء: على كل حال كما قال «عاطف» إننا لن نخسر شيئًا، وسنقضي وقتًا مُمتعًا.

استغرق الأربعة في التفكير بعد هذا الرد، وأخذوا يَنظُرون إلى الجزيرة التي بدَت من بعيد كأنها وحشٌ بحري خرافي يَرقُد في الماء، والقارب يشقُّ طريقه في الماء الهادئ سريعًا.

اقترب القارب من الجزيرة، وأصبح على بُعد عشرين مترًا تقريبًا منها، فقال «تختخ»: إنني لا أريد الصعود إلى الجزيرة، بل أريد أن نقف قرب الطرف الشمالي على مَبعُدة من الصخور. فهل هذا مُمكن يا «ياسر»؟

ياسر: طبعًا هذا مُمكن، وفي إمكاننا أن نلقي الخطاف فيرسو القارب.

وهكذا، عندما أصبحوا على مسافة صغيرة من الجزيرة، أوقف «ياسر» الموتور، وألقى الخطاف في الماء، فتوقف القارب تمامًا.

قال «تختخ»: أرجو أن تَنتظرُوني ولا تتحرَّكوا.

ياسر: ماذا ستفعل؟

تختخ: سأُمارس هوايتي الجديد، الغطس.

وأخذ «تختخ» يَخلع ثيابه وبقيَ بالمايوه، ثم ارتدى أدوات الغَطس، النظارات الكاوتشوك، ذات العيون الزجاجية الواسعة، والزعانف، ووضْع أنبوبة الغطس في فمه، وأمسك ببندقية الصيد، وجلس على حافة القارب يَنظر إلى المياه. فقال «ياسر»: خذ حَذرك يا «تختخ»، فكثيرًا ما تقترب أسماك القرش المتوحِّشة من هذه الجزيرة، كذلك فإن «الأخطبوط» رغم صغر حجمِه مُنتشر هنا.

نظر «تختخ» من خلال النظارة الواسعة إلى الأصدقاء مُبتسمًا، ثم ألقى بنفسه في الماء، وبدأ يَسبح متَّجهًا إلى الجزيرة، وأحسَّ «عاطف» بالخوف على «تختخ» فقال: إنني أخشى أن يلتقي بسمكة قرش متوحِّشة، ولستُ أعتقد أن بُندقية الصيد ذات الحربة ستكون لها أيَّة قيمة في الصراع مع هذا الوحش القوي.

ياسر: في الحقيقة إنها مُغامرة مُخيفة، وأنا أخشى أن يحدث لـ «تختخ» شيء، ولا نستطيع مساعدته.

اقترب «تختخ» من شاطئ الجزيرة الصَّخري، وأخذ ينظر بين الصخور مُحاولًا البحث عن قناة الماء التي تُوصِّل إلى مُنتصَف الجزيرة، ولكن المياه كانت تُغطِّي الصخور، ولا تبدو منها فتحة يمكن أن تؤدِّي إلى قاع الجزيرة كما توقع.

اقترب «تختخ» أكثر فأكثر، حتى أصبح بين الصخور، وفجأة لاحظ وجود فتحة بين الصخور، ولكن تحت الماء تدخل إلى ما تحت الجزيرة، فلم يتردَّد، واقترب منها ثم غطس فيها، ووجد نفسه في ممر من المياه العميقة السوداء بين صفَّين من الصخور، وكانت مجموعات كبيرة من الأسماك من مختلف الأنواع تعوم حوله، وظل غاطسًا تحت الماء، فترة دون أن تنفعه أنبوبة الغطس؛ لأن المياه كانت تصل إلى سقف الممر، فلا يُمكنه أن يصعد بقرب السطح، وعندما حاول أن يصعد ليتنفس ارتطمت رأسه بالصخور، فعاود الغطس، وقد بدأ يحس بحاجته إلى الهواء، وقرر أن يحاول ثانية، ولكن رأسه ارتطم مرةً أخرى بالصخور، وأحسَّ بصدره يضيق تدريجيًّا، حتى يكاد ينفجر، فقرر العودة فورًا، ولم يستطع الاستدارة في الممرِّ المائي الضيق إلا بصعوبةٍ بالغة، وأسرع في الاتجاه إلى مدخل

الممرِّ مرةً أخرى، ولم يكد يصل إلى نهاية أوله، حتى رفع رأسه إلى فوق، ونزع الأنبوبة من فمه، وتنفَّس نفسًا عميقًا، وهو لا يكاد يصدق أنه نجا.

كان القارب يقف في مكانه، والأصدقاء الثلاثة «محب» و«عاطف» و«ياسر» يتطلعون إلى المكان الذي اختفى فيه «تختخ»، وقد أصابهم الخوف والقلق، فلم يَكد يظهر حتى صاحوا جميعًا: هذا هو «تختخ» ... لقد ظهَر مرةً أخرى.

صعد «تختخ» إلى أحد الصخور الملتوية، وجلس عليها وخلع النظارات، وأخذ يُفكِّر في خطوته التالية: هل يعود إلى القارب، ويَنفض يده من هذه المُغامَرة، أم يُحاول مرةً أخرى؟

وبعد فترةٍ من الراحة قرَّر أن يُحاول للمرة الثانية، وأشار بيده إلى الأصدقاء إشارة مشجعة، ثمَّ أخذ نفسًا عميقًا، وغاص مرةً أخرى في المياه السوداء. مندفعًا بقوةٍ داخل الممر المائي المُظلم محاولًا قطع أطول مسافة ممكنة قبل أن يحتاج إلى الهواء.

ظل «تختخ» مندفعًا تحت المياه، حتى قطع بضعة أمتار، ثم أحسَّ بصدره يضيق مرةً أخرى، ولكنه ظل مندفعًا حتى أحس أنه لن يستطيع المقاومة أكثر بجسمِه، وأخذ نفسًا عميقًا، ولحسن الحظ أتت إليه أنبوبة التنفس بكميةٍ من الهواء أنعشته، فأدرك أن سطح الممر الصخري قد وصل إلى منطقة مرتفعة تسمَح له بإخراج رأسه من المياه، وأحسَّ بقلبه يدق بشدة، فقد صحت نظريته، وهناك نفق تحت الماء يؤدي — كما توقَّع — إلى منتصف الجزيرة.

عندما رفع «تختخ» رأسه لم يرَ شيئًا، فقد كان الممر مظلمًا لا يكاد يرى فيه إصبعه، وأحس برهبةٍ قوية، أمام الصمت المخيف والظلام الدامس، وفكَّر لحظات هل يستمرُّ في التقدم، أم من الأفضل له أن يعود؟ إنه لا يَعلم إذا تقدم أي أخطار مجهولة في انتظاره، فقد تكون سمكة قرش ضخمة قد اختارت الكهف مكانًا تأوي إليه، أو يكون هناك أخطبوط يلتفُّ على ساقيه، وعلى كل حال فقد تأكَّد هذه المرة من وجود النفق، ويستطيع الرجوع الآن على أن يعود مرةً أخرى ومعه بطارية يستطيع أن يكشف بها عما يخفيه هذا الظلام من أسرار.

وهكذا أخذ نفسًا عميقًا، ثم غطس مرةً أخرى، وأخذ يشق الماء مسرعًا، حتى يصل إلى نهاية النفق الخارجي دون أن يشعر بالاختناق، ولكن قبل أن يقطع أكثر من مترَين، أحس بجسمٍ طريٍّ يصطدم بكتفه اليسرى بشدة، فارتطم بالحائط الصخري، وشعر بألمٍ فظيعٍ في كتفه اليمنى، وأدرك أن الصخور قد جرحته، لم يستطع «تختخ» أن يعرف ما الذي اصطدم به، هل هو شخصٌ آخر في النفق؟ أم هي سمكة قرش تشقُّ طريقها في المياه

الساكنة؟ إذا كانت سمكة قرش فهو في خطرٍ حقيقي، فالدماء النازفة من جرحه سوف تشدُّ سمكة القرش إليه مرةً أخرى، فهو يعرف أنها تشم رائحة الدم في المياه، فتُصبح أكثر شراسة، وأشد خطورة.

كانت أفكار «تختخ» تبرق في رأسه بسرعة، وهو يفكر فيما يفعله، ولم يكن أمامه سوى حل واحد، أن يُسرعَ بالخروج من النفق، برغم الآلام التي كان يحس بها في كتفه، وهكذا أخذ يشق طريقه مسرعًا، متناسيًا آلامه، فقد كان خطر الغرق ماثلًا أمامه إذا لم يجد هواءً بسرعة، واندفع بأقصى قوته خارج النفق، ولم يكد يستنفد آخر قوته، حتى وجد الضوء يغمر المياه، فأدرك أنه قد وصل إلى خارج النفق، فاندفع خارجًا منه، وأحسَّ بالهواء يدخل رئتيه بقوةٍ آلمته، ولم يكد يطفو على السطح، حتى أحس باضطراب المياه خلفه، وأدرك أن عدوَّه المجهول قد عاد مرةً أخرى، فتحامل على نفسه، وصعد إلى صخرةٍ قريبة. والتفت ينظر إلى المياه، وإذا بعدوِّه المجهول ... سمكة قرش متوسطة، قد فتحت فمها المقوس محاولة أن تلحق بقدميه، ودون أن يدري ماذا يفعل بالضبط، صوب بندقيتَه، وأطلقها في فم الوحش، فمضت الحربة كالرصاصة إلى داخل الفم المفتوح، واستدار الوحش غاضبًا وغاصَ في المياه.

شاهد الأصدقاء الثلاثة ما حدَث وكأنَّه حلم، وأدركوا أن الوحش سوف يجرُّ الحبل المربوط بين البندقية والحربة، وهو حبلٌ قويٌّ من «النايلون» مربوطٌ طرفُه في الحربة، والطرف الثاني في البندقية، حتى يتمكَّن الصائد من جذب السمكة إليه في الوقت المناسب، وسيجرُّ «تختخ» معه ما لم يُلقِ بالبندقية من يده، وبسرعة أدار «ياسر» موتور القارب، واندفع به إلى ناحية الصخور، مُحاولًا الاقتراب من «تختخ» بقدر الإمكان، وسمع «تختخ» موتور القارب، وشاهدَه يَقترب، وبكلِّ ما بقي به من قوة ألقى بنفسه في الماء مرةً أخرى سابحًا إلى القارب، ومد «عاطف» و«محب» أيديهما إليه، وانتشلاه من الماء، وكانت السمكة المتوحِّشة قد بدأت تشد الحبل، فأسرع «ياسر» يربطه بجانب القارب الذي أخذ يهتز نتيجة الجذب العنيف.

ترك «ياسر» القارب يسير على هواه، وأسرع إلى «تختخ» بعد أن شاهد الدماء تسيل على ذراعه، وكان في القارب أدوات للإسعاف السريع، ففتح صندوقها، ثم نظَّف الجرح بسرعة، ومسحه بمُطهرٍ وربطه، وكانت الأسئلة تنهال من الأصدقاء الثلاثة على «تختخ»، الذي كان، برغم آلامه يبتسم لهم مشجعًا. ثم قال «تختخ»: أرجو أن تهتمَّ بسمكة القرش، إنها أول سمكة اصطدتها في حياتي، فهل يُمكن جذبها إلى القارب؟

قال «ياسر» الذي عاد إلى عجلة القيادة: إذا حاولنا جذبها الآن فقد تقلب القارب أو تقطع الحبل، سوف نتركُها فترة، حتى ينزف دمها وتضعف، ثم نجذبها، وبينما كان «محب» و«عاطف» يحيطان «تختخ» برعايتهما، كان «ياسر» يقوم بمناوَراته لاصطياد السمكة المتوحشة.

لبس «تختخ» ثيابه وهو يقول: الحمد لله إن السمكة لم تُهاجمني في النفق، لقد كان في إمكانها أن تقضيَ عليَّ، ولكن لحسن الحظ أنني استطعت الوصول إلى نهاية النفق قبلها.

قال محب: قل لنا ماذا حدث بالضبط؟

تختخ: ليس الآن! المهم أن نصطاد السمكة، فهيا بنا نُساعد «ياسر»، وإذا كان معنا شاي، فأعطوني كوبًا منه.

أسرع «عاطف» يصب فنجان الشاي من «الترمس» في حين وقف «تختخ» بجانب «ياسر»، كانت السمكة قد خارت قواها، وبدأت تَفقد قوتها على الجذب، وطلب «ياسر» من «محب» أن يبدأ في جذب الحبل برفق، على أن يُرخيَه كلما جذبته السمكة بشدة.

وبرغم الآلام التي كان يشعر بها «تختخ» كان مبتهجًا، يرقب الصراع بينهم وبين الوحش في انفعال.

استمرت المناورات بعض الوقت، وأخذ الحبل يَقصُر تدريجيًّا، وهم يقتربون بالقارب على مهل من السمكة، وأخيرًا أصبحوا بجوارها تمامًا. كانت ما تزال تقاوم، ولكن في وهن. فقد ضعفت، وانتهت قدرتها على الصراع، وأخيرًا سكتت تمامًا.

فأوقف «ياسر» القارب قائلًا: أرجو أن نتعاون جميعًا على جذبها إلى فوق. ووقف الأصدقاء الأربعة معًا، وأمسكوا بالحبل، وجذبوا برفق. وأخذ جسم السمكة الرمادي اللامع يصعد من المياه شيئًا فشيئًا، ثم بدا بطنُها الأبيض. وفي جذبةٍ أخيرةٍ موفَّقة، استطاع الأصدقاء أن يلقوا بها في القارب، فارتعشت ارتعاشةً أخيرة، ثم همدت إلى الأبد.

كانت سمكة متوسِّطة الحجم، طولها نحو متر ونصف، وكان فمها مفتوحًا، وقد بدت أسنانها القوية تلمع في أشعة الشمس، وانفعل «محب» فأمسكَ بيد «تختخ»، وأخذ يهزها بحماس قائلًا: إنك مغامر عظيم ... على البر ... وفي البحر معًا.

ابتسم «تختخ» قائلًا: لقد كان هذا مجرد حظٍّ حسن، إنَّ التغلب على سمكة قرش يحتاج إلى مهارةٍ عظيمة، ولولا أنكم فكرتم بسرعة، لكنت أنا الآن مكان هذه السمكة.

أدار «ياسر» موتور القارب، واتجه إلى «أبو قير» مرةً أخرى، في حين جلس المغامرون الثلاثة حول السمكة، وقد استغرقتهم الأفكار.

المفاجأة الكاملة

كان حديث الأسرة والأصدقاء في تلك الليلة عن مغامرة «تختخ» تحت الماء، وقد استطاع «تختخ» أن يُخفيَ عن الأستاذ «شوكت» وزوجته إصابته، وقال إنها جرح صغير أصابه أثناء الغطس، كما طلب من الأصدقاء الثلاثة الذين كانوا معه ألا يُشيعوا قصة النفق الذي اكتشفه تحت الجزيرة؛ لأنه يومًا أو يومين ويخفُّ تأثير الجرح في كتفه.

وقد قضى «تختخ» ثلاثة أيام مع الأصدقاء يُمرِّنهم على الغطس تحت الماء، فقد قرر أن يستعين بواحدٍ أو اثنين منهم، في مغامرته القادمة في النفق، حتى يتمكنوا من الانتصار على أية عوائق يمكن أن تقف في طريقهم. أما السمكة التي اصطادها «تختخ»، فقد اشتراها منه الأستاذ «شوكت»، وأعطاه مبلغًا سخيًّا مقابل شجاعته، وطلب «تختخ» الاحتفاظ بأحد أسنانها كذكرى لهذه المغامرة المدهشة.

وبالمبلغ الذي أخذه «تختخ» من الأستاذ «شوكت»، ومن نقوده الخاصة وبعض نقود الأصدقاء، اشتروا بعض الأجهزة للغوص وبندقيةً أخرى، كما اشتروا ثلاثة مصابيح يدوية لاستخدامها في النفق عندما يعودون إليه.

في اليوم الخامس كان «تختخ» قد أصبح على «محب» و«ياسر» و«عاطف»، وجهزوا القارب بالمأكولات والمشروبات، ثم انطلقوا إلى المغامرة، وسط احتجاج الفتيات على هذه التفرقة، ولكن «تختخ» أصر على بقائهنَّ في البيت، حتى لا يُعرِّضهن لأخطار الرحلة.

كان صباحًا مُشرقًا والقارب يشق طريقه إلى الجزيرة مرةً أخرى، و«تختخ» يلقي بتعليماته، سأنزل أنا و«ياسر» فقط إلى الماء، وسيكون «محب» مُستعدًّا على القارب في حين يبقى «عاطف» بملابسه للحراسة.

بعد حوالي نصف ساعة وقف القارب في مكانه السابق قرب شاطئ الجزيرة، ولبس «ياسر» و«تختخ» أجهزة الغطس، وتسلَّحا بالبندقية، وحمل كلٌّ منهما بطارية ملفوفة في كيسٍ من النايلون في وسطه، ثم نزلا إلى الماء، وأخذا طريقهما إلى النفق.

كان «تختخ» يسير إلى الأمام، وخلفه «ياسر» بمسافةٍ قريبة، وأشار «تختخ» إلى «ياسر» أن يأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يغوص، ثم غاصا معًا تحت الماء ودخلا النفق، وبرغم إحساس «تختخ» بآلام الجرح، فإنه شق طريقه مسرعًا، حتى يستغل كمية الهواء التي في صدره قبل أن يحس بحاجةٍ إلى التنفس، وكذلك فعل «ياسر» الذي كان يُجيد العوم والغطس بحكم حياته على شاطئ البحر.

شق الصديقان طريقهما بسرعةٍ تحت الماء، وكان «تختخ» يقدر المسافة التي سيقطعانها قبل أن يرفعا رأسيهما، وقدرها بالوقت الذي يفقد فيه قدرته على التنفس تمامًا، وقد أحسن التقدير؛ لأنه عندما رفع رأسه، وجد الفراغ الذي بين الماء وبين سقف النفق موجودًا، وأحسَّ «ياسر» بحركة «تختخ» في الماء فرفع رأسه هو الآخر، كان الظلام دامسًا، ولكن «تختخ» لم يكن يشعر هذه المرة بأي فزع أو دهشة؛ فقد كان معه «ياسر» فمد يده في وسطه، وأخرج كيس النايلون، وأخرج منه البطارية وأضاءها، وفعل «ياسر» مثله، وعلى ضوء البطارية شاهد الصديقان أحدهما الآخر أولًا، ثم أدار البطارية في أنحاء النفق، وشاهَدَا منظرًا رائعًا … كان النفق يتَّسع تدريجيًّا في اتجاه الداخل … وقد تدلت من سقفه آلاف من الرءوس الصخرية البيضاء … فبدا كأنه نفق قصر مسحور … خاصةً عندما انعكست الأضواء على السقف، وغاصت الأشعة في المياه فأضاءتها.

اقترب «تختخ» من «ياسر» قائلًا: ما رأيك؟ رد «ياسر» في دهشة: شيء غريب … بل أغرب شيء شاهدتُه في حياتي! ولكن ما فائدة كل هذا؟

تختخ: سأقول لك الآن وبسُرعة أفكاري، حتى تدرك لماذا جئنا هنا … أنا أعتقد أن هذا النفق يَنتهي بكهفٍ واسعٍ قرب الجزيرة أي في وسطها … وأن هذا الكهف سيكشف عن سرٍّ غريب.

ياسر: سر، أي سر؟

تختخ: سر المُهرِّب الكبير … «الحنش» الذي استطاع أن يختفيَ عن أعين رجال السواحل كل هذه السنين دون أن يراه أحد. إنني أعتقد أن «الحنش» كان يُقيم هنا أغلب الوقت، وخاصةً في النهار، ثم يختفي ليلًا.

ياسر: هذا غير معقول؟

تختخ: على العكس، إنه معقول جدًّا، وقد بدأت أشكُّ في هذا منذ زيارتنا الأولى للجزيرة ... فقد وجدت على سطحها بركة الماء الصغيرة ... ثم شاهدتُ ونحن قرب الجزيرة ليلًا أضواء تخرج منها كأنها إشارات، ثم ضياع الكاميرا.

ياسر: الكاميرا ... وهل للكاميرا دخلٌ في هذا؟

تختخ: طبعًا ... لقد تركْنا الكاميرا على الجزيرة، ومع ذلك اختفت ليلًا، ولا أحد يذهب إلى الجزيرة في الليل كما نعرف ... إلا إذا كان من سكانها ... أو شخص يقف ليراقب القادمين إليها ليُخطِر من يَختفُون في قلبها ...

كان «ياسر» مذهولًا مما يسمع ... وقبل أن يسأل سؤالًا آخر قال «تختخ»: هيا نتقدم ... وسنكتفي ببطاريتي حتى لا تَنفد الحجارة ... ومن ناحيةٍ أخرى لن نُلقي بالضوء بعيدًا حتى لا يرانا أحد.

وتقدم الصديقان، وكان النفق يتسع تدريجيًّا، ويتلوَّى يمينًا ويسارًا كالثعبان، وفجأة سمعا في الصمت صوتًا يتردد صداه، كأنه صوت شخص يتحدث إلى شخصٍ آخر.

أشار «تختخ» بسرعة إلى «ياسر» فاختفَيا خلف صخرة، وتوقَّفا ينتظران فترة، ولكن أحدًا لم يظهر، فقال «تختخ» في نفسه إنه صدًى لصوتٍ بعيد، ثم أشار إلى «ياسر» أن يتقدم، وعادوا العوم في اتجاه نهاية النفق ... وبعد بضعة أمتار بدا الصوت الذي سمعاه يبدو أكثر وضوحًا، وأخذا يقتربان في بطءٍ وحذر ... ثم انحرفا يسارًا ... وأمامهما كانت أكبر مفاجأة ينتظرانها ... ففي نهاية النفق كانت هناك شبه منصة من الصخر عالية عن الماء، تشبه غرفة واسعة مضاءة بالبطاريات ... وقد جلس في صدرها رجل جريح أسمر اللون لم يشكَّ «تختخ» لحظة أنه «الحنش»، وكان يجلس بجواره شخصان وحولهما عدد كبير من الصناديق ... كلها كانت مُمتلئة بالأغذية والمخدرات والأدوات والملابس ... وكل الأشياء التي يحتاج إليها المهرِّب الخطير في حياته الغريبة.

كاد «ياسر» يُطلِق صيحة عندما رأى هذه المفاجأة الكاملة، ولكنه كتم ما بنفسه ... ونظر إلى «تختخ» نظرة دهشة ... فها هو ذا «الحنش» بعظمِه ولحمِه ... لم يَغرق كما ظن الناس ... ولكنه جريح يعالج في انتظار اللحظة المناسبة التي يعاود فيها نشاطه دون أن يُطارده أحد بعد أن ظن الجميع بما فيهم رجال السواحل أنه اختفى تحت الماء إلى الأبد ... وقد كان تحت الماء حقًّا، ولكنه حي يتنفَّس ...

دقق «ياسر» البصر، وكادت تنطلق منه هذه المرة صيحة فرح، فقد شاهد على أحد الصناديق ... الكاميرا الثمينة التي ضاعت ... كانت على بُعد أمتارٍ منه، وكم كان يود أن يحضرها، ولكن ذلك كان يُكلفه حياته ... وحياة «تختخ» أيضًا ...

وبعد أن وقف الصديقان لحظات يتأمَّلان هذا المشهد الغريب، أشار «تختخ» لـ «ياسر» بحذر أن يبدأ رحلة العودة ... وفي هدوءٍ كامل ... وبكل حذرٍ استدارا، ثم انطلقا في طريقهما إلى النفق مرةً أخرى.

تمكن الصديقان من الوصول إلى طرف النفق بسلام، وظهرا فوق الماء مرةً أخرى بعد أن نال منهما التعب، ولكنهما كانا في غاية الانفعال بعد هذه المغامرة تحت الماء، التي كشفت لغز «الحنش»، وكيف كان يختفي طوال هذه الفترات دون أن يراه أحد!

قال «تختخ»: لن نفوز هذه المرة بصيدٍ كالمرة السابقة.

ابتسم «ياسر» ورد قائلًا: لقد فزنا بصيد أكبر من سمك القرش ... لقد فزنا بـ «الحنش» شخصيًّا ... فما هي خطتك الآن؟

تختخ: سنتجه فورًا إلى الرائد «سراج»، ونُخطرُه بما شاهدناه، فهيا إلى القارب.

عام الصديقان إلى القارب، وبعد أن جفَّفا جسميهما، لبسا ثيابهما، وروى «تختخ» لـ «عاطف» و«محب» ما شاهداه، فقال «محب» معلقًا: إن الألغاز والمغامرات تتبعنا حيثما ذهبنا.

وقال «عاطف»: هذه أول مغامرة لنا بدون الشاويش «فرقع» والمفتش «سامي».

وضحك الجميع على ملاحظة «عاطف» عن صديقهم الشاويش، ثم دار الموتور مرةً أخرى، واتجه القارب سريعًا إلى شاطئ «البحر الميت»، حيث قسم خفر السواحل.

وصل الأصدقاء إلى قسم السواحل، ولكنهم لم يجدوا الرائد «سراج» هناك، كان قد خرج في جولة تفتيشية على الشاطئ، فقال «ياسر» لـ «تختخ»: أخشى أن يُفلت الصيد منا.

رد «تختخ» بثقة: لا تخف إن «الحنش» لا يمكنه مغادرة الكهف؛ لأنه جريح، بل هو لا يغادره أبدًا في النهار خوفًا من انكشاف أمره.

مضَت ساعة تقريبًا، ثم ظهر الرائد «سراج» على عتبة القسم، فأسرع الأصدقاء إليه وقال «تختخ»: لقد جئتُ لك بصيدٍ سمين.

قال الرائد «سراج» مُبتسمًا: سمكة قرش أخرى؟! لقد سمعت عن مغامرتك تحت الماء، وهذا خطأ كبير منك أن تنزل في هذه المنطقة الخطيرة في سبيل أي صيد.

تختخ: حتى لو كان هذا الصيد ثعبانًا؟

سراج: إن كيلو الثعابين بخمسين قرشًا، وهذا ثمن رخيص بالنسبة لحياة الإنسان.

تختخ: حتى ولو كان هذا الثعبان رجلًا؟

رد «سراج» متعجِّبًا: رجلًا ... لا أفهم ماذا تعني؟

تختخ: أقصد لو كان هذا الثعبان ... «حنش» بلُغة أهالي «أبو قير».

سراج: لم أفهم بعد ...

تختخ: إذا كان هذا الثعبان هو المهرب الخطير «الحنش»؟

زم الرائد «سراج» شفتَيه، فإن النكتة لم تُعجبه، وقال: المهرب «الحنش»، هل عثرت على جثته؟

تختخ: إنه لم يُصبح جثة بعد ... فهو حيٌّ يرزق ويعيش تحت جزيرة «نلسن».

بدا الاهتمام على الرائد «سراج»، وقال: هل تُوضِّح لي ماذا تقصد؟

وروى «تختخ» للرائد «سراج» مغامرتَيه الأولى والثانية تحت الماء، ثم أشار إلى «ياسر» قائلًا: وقد تظنُّ أنني أتخيل ما حدث ... أو أنني أحلم ... ولكن لحسن الحظ هناك شاهدٌ آخر ...

قال «ياسر»: نعم ... لقد شاهدت كل شيءٍ بنفسي، رأيت «الحنش» واثنين من أعوانه يجلسون تحت الجزيرة، حيث لا يتوقع أحد وجودهم ...

لم يكدِ الرائد «سراج» يَسمع هذا، حتى أخذ يُصدر أوامره بسرعة: أعدوا «اللنش» استعدوا بأدوات الغطس ... أحضروا المدافع الرشاشة ...

ولم تمضِ دقائق حتى كان اللنش الكبير محملًا بالرجال ومستعدًّا للإبحار. فقال «تختخ»: ألا توافق على أن نرى نهاية «الحنش» معكم؟

ووافق الرائد «سراج»، فأسرع الأصدقاء إلى ظهر «اللنش» الكبير الذي سرعان ما دارت ماكينته، وانطلق يشقُّ الماء بسرعة.

وقف الأصدقاء بجوار الرائد «سراج» على ظهر اللنش، فقال «سراج» موجهًا حديثه إلى «تختخ»: الذي لا أستطيع فهمه ... كيف استطاع «الحنش» أن يعوم كل هذه المسافة وهو جريح؟

تختخ: لقد فكرت في هذه المسألة أنا أيضًا، واستطعت أن أصل إلى الحل الوحيد. وانتبه «سراج» والأصدقاء إلى «تختخ» وهو يفسر ما حدث قائلًا: لعلك تذكر أنك قلت لي إنكم بعد المعركة بينكم وبين المهرِّبين، عدتم إلى شاطئ البحر الميت؟

سراج: طبعًا.

تختخ: وأن طريقكم يقترب من جزيرة «نلسن»؟

سراج: ليس لنا طريقٌ سواه.

تختخ: المسألة سهلة إذن ... لقد كنتُم تجرُّون سفينة المهربين خلفكم بواسطة اللنش ... وكان «الحنش» متعلقًا بدفة السفينة التي تجرُّونها، وهكذا ساهمتم في مساعدته.

سراج: ذلك حلٌّ معقول جدًّا.

تختخ: واستطاع أن يَختفي عن أعينكم في الظلام خلف السفينة، ثم عندما اقتربتم من الجزيرة ترك السفينة، وكان يمكنه طبعًا أن يقطع المسافة البسيطة عائمًا، حيث أوى إلى الكهف، حيث حضر إليه أعوانه الهاربون، وقاموا بتمريضِه.

سراج: ولكنه كان مصابًا بالرصاص.

تختخ: هذه مشكلة طبية، ولعلَّ الرصاص ما زال في جسمه بعد، ولعله لم يصبه في أماكن خطيرة مثل القلب أو البطن.

سراج: سنرى على كلِّ حال.

نهاية مهرب

اقترب «اللنش» الكبير من الجزيرة، ثم وقف حيث أشار «تختخ» — قريبًا من فتحة النفق — واستعد رجال الغوص، ثم قفزوا إلى المياه، ودخلوا النفق بعد أن شرح لهم «تختخ» الطريق.

مرَّت الدقائق ثقيلة والرائد «سراج» يقف مع الأصدقاء، وقد ركز الجميع أنظارهم على فتحة النفق، في انتظار ظهور الرجال، فظهر رجلٌ ومعه مُهرب. ثم ظهر ثانٍ ومعه المهرِّب الآخر ... وأخيرًا ظهر ثلاثة من رجال الغوص يُحيطون بالمُهرِّب الكبير.

وفي سكون، ودون مقاومة تقدم الجميع إلى «اللنش» والمدافع الرشاشة تطلُّ من جانبه مصوبةً في انتظار أي حركة، ولكن المهرِّبين الثلاثة كانوا يُدركون أنه لا فائدة من المقاومة بعد أن انكشف سرُّهم الكبير.

عندما صعد «الحنش» إلى «اللنش» كان شاحبًا، بادي التعب والإعياء، وأخذ ينظر حوله مذهولًا، كأنه لا يُصدق ما حدث، واتجه «اللنش» عائدًا إلى ميناء البحر الميت، والرائد «سراج» يَبتسِم ويضع يده على كتف «تختخ» قائلًا: لقد سمعت كثيرًا عن مغامراتك، ولكن هذه المغامرة حضرتها بنفسي، وأشهد لك بأنك أذكى وأشجع مما سمعتُ عنك.

قال «تختخ»: هل أحضَرَ رجالك الكاميرا؟

رد «سراج»: كدتُ أنسى ... ولعل الرجال اعتبروها من ضمن المضبوطات.

ثم استدعى أحد رجاله وطلب منه إحضار الكاميرا ... ولحسن الحظ لم تكن قد أصيبت بأي خدش، فقد حافظ عليها الرجل ولفها في كيسٍ من المشمع السميك.

عندما وصل «اللنش» إلى الميناء، تجمع عشرات من الناس على الشاطئ، وقد سرَت بينهم إشاعة القبض على المهرِّب الخطير، وكان أكثرهم غير مُصدِّق، ولكن ظهور «الحنش» بين أيدي رجال السواحل جعل الإشاعة حقيقة واقعة.

في هذا المساء كان «تختخ» هو البطل الذي تحدَّثت عنه «أبو قير» كلها ... وبينما كان يروي القصة للأسرة سألته «لوزة»: هناك نقطة لم أفهمها بعد يا «تختخ» هي كيف يصل الهواء إلى الكهف ما دام النفق المؤدي إليه مملوءًا بالمياه، ولا يسمح بدخول الهواء؟

ابتسم «تختخ» لـ «لوزة» وقال: لقد اعتدت أن أسمع منك الأسئلة الذكية، ولم أكن أتوقع أن تفوت هذه المغامرة دون سؤال ... والإجابة هي أن في سقف الكهف عشرات من الشروخ الرفيعة التي لا يتمكَّن الإنسان من رؤيتها في الظلام، وهي التي تمد الكهف بالهواء اللازم ... وكان أحد هذه الشقوق هو بداية الخيط الذي أدى إلى حل لغز «الحنش»، فلم يكن من الممكن بالنسبة لأي شخصٍ أن يعرف مكان الكهف؛ لأنه مُختفٍ تمامًا تحت الجزيرة، ولا يراه أحد من خلالها ... ولكن هذا الشرخ هداني إلى التفكير في وجود النفق، ثم الكهف.

وقضى الأصدقاء إجازة ممتعة ... وعندما عادوا إلى «المعادي» كانت معهم قصة رائعة ليَروُوها لأصدقائهم.


هنداوي